

Ghazzālī.

الحكمة في مخلوقات الله

للإمام أبي حامد الغزالي الطوسي
المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية

تحقيق

الدكتور محمد رشيد قباني

استاذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق
في جامعة بيروت العربية

توزيع

دار احياء العلوم - بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المحقق

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وبعد :
فهذا كتاب نادر ونفيس للإمام الغزالي - رضي الله عنه - أسماه
« الحكمة في مخلوقات الله » . وهو على صغر حجمه حوى كثيراً من
الحِكم التي يتطلع الإنسان إلى معرفة أسرارها ، فقد بحث فيه
الغزالي حكمة خلق الشمس ، والقمر ، والكواكب ، والأرض ،
والبهار ، والماء ، والهواء ، والنار ، والإنسان ، والطير ، والبهائم ،
والنحل ، والنمل ، والعنكبوت ، ودود القز ، والذباب ، والسمك ،
والنبات ؛ وبين في كل باب ما فيه من عجائب حكمة الله تعالى في
خلقه ، وما تستشعر به القلوب من العظمة لِعِلام الغيوب . فهو
كتاب جدير بأن يقتنى ويفيد منه كل إنسان ، ومن هنا كان اهتمامي
بتحقيقه ونشره .

عملي في هذا الكتاب :

عندما وقعت بين يدي نسخة هذا الكتاب النادر وطالعتها ،
وجدتها دون تحقيق ، متصلة الأسطر ، غير مجزأة الفقرات ، ولا

2269

.38

.346

1978

الطبعة الأولى

١٩٧٨ م - ١٣٩٨ هـ

جميع الحقوق والطبع محفوظة للمحقق

تصميم الغلاف

تقدمة الفنان وجيه نخله

٧٩٦٤٥

ترجمة حياة المؤلف

الامام الغزالي رضي الله عنه

هو الامام أبو حامد محمد بن أحمد الغزالي ، الملقب حجة الاسلام زين الدين الطوسي ، الفقيه الشافعي^(١) . إمام باسمه تنشر الصدور ، وتحيا النفوس ، وبرسمه تفتخر المحابر وتهتز الطروس ، ولسماعه تخشع الأصوات وتخضع الرؤس ، ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة هجرية ، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في حانوته^(٢) .

اشتغل في مبدأ أمره بطوس في طلب العلم ، ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين « أبي المعالي الجويني » ؛ وجدّ في الاشتغال بالعلم حتى تخرج في مدة قريبة ، وصار من الأعيان المشار إليهم في زمن استاذة ، وصنف في ذلك الوقت المؤلفات الكثيرة . ولقي الوزير نظام الملك ، فأكرمه الوزير وعظمه وبالغ في الأقبال عليه وكان بحضرة الوزير جماعة من الافاضل ، فجرى بينهم الجدل والمناظرة في عدة مجالس ، فظهر الغزالي عليهم ، واشتهر اسمه وسارت بذكره الركبان ، ثم فوّض إليه الوزير تدريس مدرسته

مرتبة الفواصل ، بل ومضطربة في علامات الترقيم أيضاً ، وهي العلامات المطبعية الحديثة التي تفصل بين الجمل والعبارات ، أو تدل على معنى الاستفهام ، أو التعجب ، وما يحمل عليها . فوجهت لذلك عناية خاصة ، كي لا يخلو هذا الكتاب من هذه الفائدة ، وذلك أمر مطلوب في طباعة الكتب ونشرها ، ونبه عليه الاستاذ عبد السلام هارون في كتابه « تحقيق النصوص ونشرها » فقال : « وللترقيم منزلة كبيرة في فهم النصوص وتعيين المعاني ، فربّ فصله يؤدي فقدما إلى عكس المعنى المراد ، وزيادتها إلى عكسه أيضاً ، ولكنها إذا وضعت في موضعها صح المعنى واستنار ، وزال ما به من الابهام^(١) » . كما عمدتُ أيضاً إلى الآيات القرآنية التي وردت في صلب البحث ، فحققت موضعها من السورة وأشرت إليه في هامش البحث ، كما شرحت الالفاظ الغامضة من معاجم اللغة وأثبتتها في الهامش أيضاً . ومهدت لذلك كله بترجمة حياة المؤلف ، تبين علمه وفضله ، ومنزلته وقدره بين علماء الإسلام .

وحسي أخيراً أني أوجدتُ هذا الكتاب النفيس في ثوب جديد ، بين أيدي القراء في العالمين العربي والإسلامي ، بعد أن أصبح نادراً ، وفي حكم المخطوطات ، ودون تحقيق . والله ولي التوفيق

بيروت في ١ محرم الحرام ١٣٩٨ هجرية
و ١١ كانون الاول ١٩٧٧ ميلادية
محمد زكريا قباقي

١ - وفیات الأعيان لابن خلكان ٢١٧/٤ ، تحقيق الدكتور احسان عباس .

٢ - طبقات الشافعية لالاسنوي ٢٤٢/٢ ، تحقيق عبدالله الجبوري .

١ - تحقيق النصوص ونشرها لعبد السلام هارون / ٨٠

النظامية في مدينة بغداد سنة أربعمائة وثمانين ، وأعجب به أهل العراق ، وارتفعت منزلته عندهم .

ثم ترك الغزالي جميع ما كان عليه سنة أربعمائة وثمان وثمانين ، وسلك طريق الزهد ، وقصد الحج ، فلما رجع توجه إلى الشام ، فأقام بمدينة دمشق مدة يلقي الدروس في زاوية الجامع ، ثم انتقل إلى بيت المقدس واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد ، ثم قصد مصر وأقام بالاسكندرية مدة ، ثم عاد إلى وطنه طوس واستقل بنفسه ، وصنف الكتب المفيدة في فنون عدة منها : كتاب « الوسيط » . و « البسيط » . و « الوجيز » . و « الخلاصة » في الفقه . ومنها : « إحياء علوم الدين » وهو من أنفس الكتب وأجلّها . وله في أصول الفقه « المستصفى » فرغ من تصنيفه سنة ثلاث وخمسمائة . وله « تهافت الفلاسفة » . و « محك النظر » . و « معيار العلم » . و « المقصد الاسنى في شرح اسماء الله الحسنى » . و « مشكاة الأنوار » . و « المنقذ من الضلال » . (١) و « الاقتصاد في الاعتقاد » . و « علوم النظر » . و « معارج القدس في أحوال النفس » . و « مقاصد الفلاسفة » . و « تنزيه القرآن عن المطاعن » . و « المعارف العقلية » . و « جواهر القرآن » . و « فضائح الباطنية » . و « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » . و « منهج العابدين » . و « ياقوت التأويل في تفسير التنزيل » . هو تفسير يقع نحو أربعين مجلداً (٢) .

١ - الأعلام للزركلي ٣/ ٩٧٠

٢ - وفیات الاعيان لابن خلكان ٤/ ٢١٨

ثم عاد إلى نيسابور والتدريس بالمدرسة النظامية ، ثم ترك وعاد إلى بيته في وطنه طوس ، واتخذ خانقاه للصوفية ، ومدرسة للمستغلين بالعلم في جواره ، ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ، والقعود للتدريس ، إلى أن انتقل إلى ربه يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة ، سنة خمس وخمسمائة به « طوس » (١) .

فرحه الله تعالى



١ - طوس : مدينة في « خراسان » من بلاد فارس .

الحكمة في مخلوقات الله

للامام أبي حامد الغزالي الطوسي

المتوفي سنة ٥٠٥ هـ هجرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي جعل نعمته في رياض جنان المقربين ، وخص بهذه الفضيلة من عباده المتفكرين ، وجعل التفكير في مصنوعات وسيلة لرسوخ اليقين في قلوب عباده المستبصرين ، استدلوا عليه سبحانه بصفته فعليموه ، وتحققوا أن لا إله إلا هو فوجدوه ، وشاهدوا عظمته وجلاله فنزّهوه ؛ فهو القائم بالقسط في جميع الأحوال ، وهم الشهداء على ذلك بالنظر والاستدلال ، فعلموا أنه الحكيم القادر العليم كما قال في كتابه الكريم : « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقُسْطِ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »^(١).

والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وشفيع المذنبين ، محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه ، وشرف وكرم إلى يوم الدين .

أما بعد : فاعلم يا أخي وفقك الله توفيق العارفين ، وجمع لك خير الدنيا والدين ، أنه لما كان الطريق إلى معرفة الله سبحانه التعظيم له في

٢ - الآية ١٨ / من سورة آل عمران .

التفكر في خلق السماء وفي هذا العالم

قال الله تعالى : ﴿ أَقْمِ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾^(١) وقال سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ . يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ . لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾^(٢) .

إعلم رحمك الله : أنك إذا تأملت هذا العالم بفكرك وجدتَه كالبيت المبني ، المعد فيه جميع ما يحتاج إليه ، فالسما مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالسطح ، والنجوم منصوبة كالمصابيح ، والجواهر مخزونة كالذخائر ، وكل شيء من ذلك معد مهياً لشأنه ، والانسان كالمالك للبيت ، المحوّل لما فيه ، فضروب النبات لما ربه ، وأصناف الحيوانات مصرفة في مصالحه ، فخلق سبحانه السماء ، وجعل سبحانه لونها أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها ، ولو كانت

مخلوقاتة ، والتفكر في عجائب مصنوعات ، وفهم الحكمة في أنواع مبتدعاته ، وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين ، وفيه تفاوت درجات المستقين ، وضعت هذا الكتاب لعقول أرباب الأبواب ، بتعريف وجوه من الحكيم والنعم التي يشير إليها معظم آي الكتاب ، فإن الله تعالى خلق العقول ، وكمّل هداها بالوحي ، وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاتة ، والتفكر والاعتبار بما أودعه من العجائب في مصنوعات ، لقوله سبحانه : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(١) وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٢) . إلى غير ذلك من الآيات البينات ، والدلالات الواضحات ، التي يفهمها [كل ذي عقل سليم]^(٣) . والترقي في اختلاف معانيها يعظم المعرفة بالله سبحانه ، التي هي سبب السعادة ، والفوز بما وعد به عباده من الحسنى وزيادة .

وقد بوّبته أبواباً ، يشتمل كل باب [منها] على ذكر وجه الحكمة من النوع المذكور فيه من الخلق ، وذلك حسب ما تنبّهت له عقولنا فيما أشرنا إليه ، مع أنه لو اجتمع جميع الخلائق على أن يذكروا جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى ، وما وضع من الحكيم في مخلوق واحد من مخلوقاتة ، لعجزوا عن ذلك . وما ادر كته الخلائق من ذلك [هو] ما وهب الله سبحانه لكل منهم ، وما سبق له من ربه سبحانه ، والله المسئول أن ينفعنا به برحمته وجوده .

الامام الغزالي

١ - الآية ١٠١ / من سورة يونس .

٢ - الآية ٣٠ / من سورة الانبياء .

٣ - الكلمات التي بين قوسين هكذا [زيادة من الحق لتوضيح الكلام .

١ - الآية ٦ / من سورة ق .

٢ - الآية ١٢ / من سورة الطلاق .

تدل على إرادة منشئها . فسبحان القادر العالم المريد .

وقيل : في النظر إلى السماء عشر فوائد : تنقص الهم ، وتقلل الوسواس ، وتزيل وهم الخوف ، وتذكر بالله ، وتنشر في القلب التعظيم لله ، وتزيل الفكر الرديئة ، وتنفع لمرض السوداء ، وتسلي المشتاق ، وتؤنس الحزين ، وهي قبة دعاء الداعين .



اشعة وأنواراً لأضرت الناظر إليها ، فإن النظر إلى الحضرة والزرقة موافق للأبصار ، وتجد النفوس عند رؤية السماء في سعتها نعيماً وراحة ، لا سيما إذا انفطرت نجومها وظهر نور قمرها .

والملوك تجعل في سقوف مجالسها من النقش والزينة ما يجد الناظر إليه به راحة وانشراحاً ، لكن إذا داوم الناظر إليه نظره وكرره ملته ، وزال عنه ما كان يجده من البهجة والانشراح ، بخلاف النظر إلى السماء وزينتها ، فإن الناظر إليها من الملوك فمن دونهم إذا ضجروا من الأسباب المضجرة لهم يلجأون إلى ما يشرحهم من النظر إلى السماء وسعة الفضاء . وقد قالت الحكماء : يحدوك عندك من الراحة والنعم في دارك بمقدار ما عندك فيها من السماء^(١) .

وفيها أنها حاملة لنجومها المرصعة ولقمرها ، وبحركتها سير الكواكب فيهندي بها أهل الآفاق ؛ وفيها طرق لا تزال توجد آثارها من المغرب والمشرق . ولا توجد مجردة ولا مقبلة في صورة نور ، وقيل انها [أي الكواكب] أنجم صغار متكاثفة مجتمعة ، يهندي بها على السير من ضل ، وينظر في أي جهة كانت فيقصدها ، وقيل : انها المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾^(٢) قيل : الحُبُكُ الطرق ، وقيل : ذات الزينة . فهي دلائل واضحة تدل على فاعلها ، وصنعتة محكمة صمدية تدل على سعة علم بارئها . وأمور ترتيبها

١ - وفي ذلك يقول الله تعالى « انا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب » الصافات / ٦ ؛ ويقول تعالى : « ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها

للناظرين » الحجر / ١٦

٢ - الآية ٧ / من سورة الذاريات .

حكمة خلق الشمس

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ^(١) ﴾
وقال : وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ^(٢) .

اعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الشمس لأمر لا يستكمل علمها إلا الله وحده ، فالذي ظهر من حكمته فيها : أن جعل حركاتها لاقامة الليل والنهار في جميع أقاليم الأرض ، ولولا ذلك لبطل أمر [الدنيا] والدين ، أو لولاه كيف كان الناس يسهون في معاشهم ؟ ويتصرفون في أمور لهم والدنيا مظلمة عليهم ؟ وكيف كانوا يتنهون بالعيش مع فقدهم لذة النور ومنفعته ؟ ولولا ضياء نورها ما انتفيع بالابصار ولم تظهر الألوان .

وتأمل غروبها وغيبتها عن طلعت عليهم وما في ذلك من الحكمة ، ولولاه لم يكن للخلق هدوء ولا قرار مع شدة حاجتهم إلى الهدوء ، وراحة ابدانهم ، وخمود حواسهم ، وانبعاث القوة الهاضمة لهضم

١ - الآية ١٦ / من سورة فوج .

٢ - الآية ١٣ / من سورة النبأ .

طعامهم ، وتفنيد الغذاء . ثم كان [به] الحرص لملمهم على مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم مكانته في ابدانهم ، فان أكثر الحيوانات لولا دخول الليل ما هدموا ولا قرّوا ، من حرصهم على نيل ما ينتفعون به . ثم كانت الأرض تحمي بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من الحيوانات والنباتات ، فهي بطلوعها في وقت وغروبها في وقت ، بمنزلة سراج لأهل بيت ، يستضاء به ليهتدوا ويقروا .

وهي في حرها بمنزلة نار يطبخ بها أهل الدار ، حتى إذا كمل طبخهم واستغنوا عنها ، أخذها من جاورهم وهو يحتاج إليها فينتفع بها ، حتى إذا قضى حاجته [منها] سلمها لآخرين ، فهي أبداً منصرفة في منافع أهل الأرض بتضاد النور والظلمة ، وما على تضادها متعاونين على ما فيه صلاح العالم وقوامه ، وإلى هذه القضية الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ * مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءَ * أَفَلَا تَسْمَعُونَ * أَفَلَا تَرَوْنَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ * مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ * تَسْكُنُونَ فِيهِ * أَفَلَا تَبْصُرُونَ ^(١) ﴾ ؟

- وما جاء في ذكر الشمس أيضاً في القرآن قوله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر » فصلت / ١٧ ؛ وقوله تعالى : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين . وسخر لكم الليل والنهار » ابراهيم / ٣٣ ؛ وقوله تعالى : « وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » الرعد / ٢ .

١ - الآيتان ٧١ / ٧٢ / من سورة القصص .

ثم بتقدمها وتأخرها تستقيم الفصول ، فيستقيم أمر النبات والحيوان . ثم انظر إلى مسيرها في فلکها في مدة سنة ، وهي تطلع كل يوم وتغرب بسير آخر سُخِّرَ لها بتقدير خالقها ، فلولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ، ولما عُرِفَتِ المواقيت . ولو انطبق الظلام على الدوام لكان فيه الهلاك لجميع الخلق . فانظر كيف جعل الله الليل سكناً ولباساً ، والنهار معاشاً^(٢) . وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل ، وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على الترتيب المخصوص^(٣) . وانظر إلى إمالة سير الشمس حتى اختلف بسبب ذلك الصيف والشتاء ، فاذا انخفضت من وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت وسط السماء اشتد العيظ ، وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان ، فيستقيم بذلك أمر النبات والحيوان بإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة .

وأما ما في ذلك من المصلحة : ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات ، فتتولد فيه مواد الثمار ، ويستكشف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر ، وتشتد ابدان الحيوان ، وتقوى أفعال الطبيعة . وفي الربيع تتحرك الطبائع في المواد المتولدة في الشتاء ، فيطلع

- ١ - وفي ذلك يقول الله تعالى : « وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . ونبيننا قوركم سبعا شداداً » النبأ / ١٠ - ١٢
- ٢ - وفي ذلك يقول تعالى : « يولج الليل في النهار . ويولج النهار في الليل . وسخر الشمس والقمر . كل يجري لأجل مسمى . ذلكم الله ربكم له الملك . والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » الآية ١٣ / من سورة فاطر ؛ ويقول : « إن في اختلاف الليل والنهار . وما خلق الله في السموات والارض لآيات لقوم يتقون » يونس / ٦

النبات بإذن الله ، وينور الشجر ، وتهيج أكثر الحيوانات للتناسل . وفي الصيف يخمر الهواء فينضج الثمار ، وتنحل فضول الأيدان ، ويحف وجه الأرض ، فتنبه لما يصلح لذلك من الأعمال . وفي الخريف يصفر الهواء ، فترتفع الأمراض ، ويمتد الليل فيعمل فيه بعض الأعمال ، وتحسن فيه الزراعة ، وكل ذلك يأتي على تدريج وبقدر ، حتى لا يكون الانتقال دفعة واحدة ، إلى غير ذلك مما يطول لو ذُكر .

فهذا مما يدل على تدبير الحكيم العليم وسعة علمه ، ثم تفكر في تنقل الشمس في هذه البروج لأقامة دورة السنة ، وهذا الدور هو الذي يجمع الأزمنة الأربعة : الشتاء ، والصيف ، والربيع ، والخريف ، وتسير على التام . وفي القدر من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار وتنتهي غاياتها ، ثم تعود فتستأنف وقت السير ، وبمسيرها تكل السنة ، ويقوم حساب السنة - على الصحة - على التاريخ بتقدير الحكيم العليم .

تأمل إشراق الشمس على العالم كيف دبره تبارك وتعالى ، فإنها لو بزغت في موضع واحد لا تعدوه لما وصل شعاعها إلا إلى جهة واحدة ، وخلت عنها جميع الجهات ، فكانت الجبال والجدران تحجبها عنها ، فجعلها سبحانه تشرق بطلوعها أول النهار من المشرق ، فيعم شروقها ما يقابلها من جهة المغرب ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب على ما أستر عنها أول النهار ، فلا يبقى موضع حتى يأخذ بقسطه منها .

ثم انظر إلى مقدار الليل والنهار ، كيف وقتها سبحانه على ما فيه

في حكمة خلق القمر والكواكب

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ (١)

إعلم أن الله سبحانه وتعالى لما جعل الليل ليزد الهواء ، وهدوء الحيوان وسكونه ، لم يجعله سبحانه ظلمة داجية لا ضياء فيها البتة ، إذ لا يمكن أن يعمل عملاً فيه ، وربما احتاج الناس إلى بعض أعمالهم في الليل ، إما لضرورة أو لضيق وقت عليهم من النهار ، وقد يقع ذلك لشدة حرارة ، أو لغيره من الأسباب ، فكان ضوء القمر في الليل من جملة ما نحتاج إليه في المعونة على ذلك ، فجعل طلوعه في بعض الليالي ، وينقص نوره عن نور الشمس وحرها ، لئلا ينشط الناس في العمل نشاطهم في النهار ، فينعدم ما به ينعمون من الهدوء والقرار ، فيضر ذلك بهم .

وجعل في الكواكب جزءاً من النور يستعان به إذا لم يكن ضوء

١ - الآية ٦١ / من سورة الفرقان .

صلاح العالم ، فصارا بمقدار لو تجاوزاه لأضرّ بكل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات ، أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يفر ما دام يجد ضوء النهار ، وكانت البهائم لا تمسك عن الرعي فينول أمرها إلى تلفها ، وأما النبات فتندوم عليه حرارة الشمس وتوهجها فيجف ويحترق ، وكذلك الليل لو امتد مقداره أيضاً لكان معوقاً لأصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش ، وتجمدت الحرارة الطبيعية من النبات فيعفن ويفسد ، كالذي يحدث إذا كان الموضع لا تقع الشمس عليه (١) .

١ - الشمس جرم سماوي مستعر ، شأنها في ذلك شأن سائر النجوم ، يزيد قطرها على مليون كيلو متر ، أي أن قطر الشمس أكبر من قطر الأرض مائة مرة ، وتبلغ درجة حرارة سطح الشمس الخارجى نحو ستة آلاف درجة مطلقة ، وتزداد هذه الحرارة بازدياد القرب من المركز حيث تصل إلى أكثر من عشرين مليون درجة ، وذلك نظراً لما تعانیه مكونات المركز من الضغوط العالية ، وتندلع من الشمس نافورات من غازات ملتبهة تصل إلى ارتفاعات عظيمة جداً من سطحها ، ومن هذه النافورات ما يعرف باسم البقع الشمسية ، وهي أعاصير جبارة في جو الشمس ، وقد يبلغ قطر الأعصار منها نحو خمسين ألف كيلو متر . (راجع كتاب الكون بين العلم والدين للدكتور محمد جمال الدين الفندي / ٦٦ ، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) .

القمر ، وجعل الكواكب زينة السماء ، وأنساً وانشرحاً لأهل الأرض ،
فما ألطف هذا التدبير ! وجعل للظلمة دولةً ومدةً للحاجة إليها ،
وجعل خلاها النجوم ، فأنظرَ من النور ليكمل به ما احتيج إليه .
ثم في القمر علم الشهور والسنين ، وهو صلاح ونعمة من الله (١) .
ثم في النجوم مآرب أخرى ، فإن فيها دلائل وعلامات على أوقات
كثيرة لعمل من الأعمال ، كالزراعة والغراسة ؛ والاهتداء بها في السفر
في البر والبحر ، وأشياء مما تحدث الأنواء والحر والبرد ؛ وبها يهتدي
السيّارون في ظلمة الليل ، وقطع القفار الموحشة ، واللجج السائلة ،
كما قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي
ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ ﴾ (٢) مع ما في ترددها في السماء مقبلة ومبدرة ،
ومشرقة ومغربة من البهجة والنضارة .

وفي تعريف القمر ، خاصة استهلاكه ومحاقه ، وزيادته ونقصانه ،
واستنارته وكسوفه ، كل ذلك دلالات على قدرة خالقها المصرف لها
هذا التصرف لاصلاح العالم (٣) .

١ - ومنه قوله تعالى : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل
لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق . يفصل الايات
لقوم يعلمون » يونس / ٥ ؛ وايضاً قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار
آيتين ، فحسبوا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة . لتبتغوا فضلاً من ربكم
ولتعلموا عدد السنين والحساب . وكل شيء فصلناه تفصيلاً » الاسراء / ١٢
٢ - الاية ٩٧ / من سورة الانعام .

٣ - القمر هو أقرب اجرام السماء إلينا ولا يزيد بعده عنا على ٣٨٠ ألف كيلو
متراً ، وأوجه القمر هي التي مكنت الانسان منذ القدم من التعرف على
الشهور وتقسيم السنة الى اثني عشر شهراً ، وفي ذلك يقول الله تعالى :
« يسألونك عن الأهلة . قل هي مواقيت للناس والحج » . البقرة / ١٨٩
(الكون بين العلم والدين للدكتور جمال الدين الفندي / ٦٩) .

ثم انظر دوران الفلك بهذه الكواكب في كل يوم وليلة دوراناً
سريعاً ، وسيرها معلوم مشاهد ، فإننا نشاهدها طالعة وغاربة ، ولولا
سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة في أربع وعشرين ساعة ،
فلولا تدبير الباري سبحانه بارتفاعها ، حتى خفي عنا شدة مسيرها في
فلكها ، لكانت تتخطف بتوهجها الأبصار لسرعة حركتها ،
كالذي يحدث أحياناً من البروق إذا توالى في الجو ، فأنظر لطف (الباري)
سبحانه في تقدير سيرها في البعد البعيد ، كيلا يحدث من سيرها حادث
لا يحتمل ، مقدرة في جميع الأحوال على قدر الحاجة .

وانظر في هذه التي تظهر في بعض السنة ، وتختبئ في بعضها ،
مثل الثريا والجوزاء والشعري ، فإنها لو كانت كلها تظهر في وقت
واحد لم يكن لشيء منها دلالة على جهالة تعرفها الناس ويهتدون بها ،
فكان في طلوع بعضها في وقت واحد دون الآخر ما يدل على ما ينتفع
به الناس عند طلوعه مما يصلحهم ؛ ولذلك جعلت بنات نعش ظاهرة
لا تغيب لضرب من المصلحة ، فإنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس
للطرق المجهولة في البر والبحر ، فإنها لا تغيب ولا تتوارى .

ثم انظر لو كانت واقفة لمطلت الدلالات التي تكون ، من تنقلات
المتنقلة منها ومصيرها في كل واحد من البروج ، كما يستدل على أشياء
تحدث في العالم بتنقل الشمس والقمر في منازلها ، ولو كانت متنقلة
كلها لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه ، لأنه إنما
يعرف مسير المتنقلة منها بتنقلها في البروج الدانية ، كما يعرف سير
السائر في الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها ، فقد صار هذا الفلك شمس

في حكمة خلق الأرض

وقمره ، ونجومه وبروجه ، تدور على هذا العالم بهذا دورانا دائما في
الفصول الأربعة من السنة ، لصالح ما فيه من حيوان ونبات وغير
ذلك بتقدير العزيز العليم .

ومن عظيم الحكمة خلق الأفلاك التي بها ثبات هذا العالم ، على
نهاية من الاتقان لطول البقاء وعدم التغير ، فقد كُفِيَ الناس التغير
في هذا الأمر الجليل ، الذي ليس قدرة ولا حيلة في إصلاحه ، ولو
نزل به تغير فإنه يوجب ذلك التغير أمراً في الأرض ، إذ قوام الأرض
مرتبطة بالسماء ، فالأمر في جميع ذلك ماضٍ على قدرة الباري سبحانه ،
لا يختل ولا يعتل ، ولا يتخلف منه شيء عن ميقاته لصالح العالم ،
فسبحان العليم القدير .

قال الله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ^(١) ﴾
وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ^(٢) ﴾
فانظر كيف جعل الله الأرض مهاداً ، ليستقر عليها الحيوان ، فإنه
لا بدله من مستقر ، ولا غنى له عن قوت ، فجميع الأرض محل للنبات
لقوته ، ومسكن يكتف من الحر والبر ، ومدفن يدفن فيه ما تؤذي
رائحته والجيف والافئدة من أجسام بني آدم وغيرها ، كما قال
سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ^(٣) ﴾ وقيل
في تفسير هذه الآية هذا القول وغيره ^(٤)

ثم ذلل طرقها لينتقل فيها الخلق لطلب ما رزقهم ، فهي موضوعة

١ - الآية ٤٨ / من سورة الذاريات .

٢ - الآية ١٦ / من سورة الأنبياء .

٣ - الآية ٢٥ / من سورة المرسلات .

٤ - « الكفات » من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه ، والمعنى في الآية : أنها

تكفت أحياء على ظهرها وأمواتاً في بطنها (تفسير الكشاف ٤ / ٢٠٣)

وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ٤٦٠)



لبقاء النسل من جميع أصناف الحيوان ، والحِث ، والنبات . وجعل فيها الاستقرار والثبات ، كما نبه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ^(١) 》 . فأمكن الخلائق بهذا ، السفر فيها في مآربهم ، والجلوس لراحتهم ، والنوم لهدوئهم ، والانتقال لأعمالهم ، فإنها لو كانت رجراجة لم يستطيعوا أن يتقنوا شيئاً من النبات وجميع الصناعات ، وكانوا لا يتنهون بالعيش والأرض ترتج بهم من تحتهم ، واعتبر ذلك بما يصيب الناس في الزلازل ، ترهيباً للخلق ، وتخويفاً لهم ، لعلمهم يتقون الله ، وينزعون عن الظلم والعصيان ، فهذا أيضاً من الحكمة البالغة .

ثم إن الأرض طبعها الله باردة يابسة بقدر مخصوص ، أرأيت لو أفرط اليبس عليها حتى تكون يحملتها حجراً صلداً لما كانت تثبت هذا النبات الذي به حياة الحيوانات ، ولا كان فيها حرث ولا بناء ، فجعل لينها لتتبعها هذه الأعمال .

ومن الحكمة في خلقها ووضعها أن جعل مهب الشمال أرفع من الجنوب ، لينحدر الماء على وجه الأرض ، فيسقيها ويروها ، ثم يصير إلى البحر في آخر الأمر ، فاشتبه ذلك ما إذا رفع أحد جانبي السطح وخفض الآخر لينحدر الماء عنه ، ولولا ذلك لبقى الماء مستبحراً على وجه الأرض ، فيمتنع الناس من أعمالهم ، وتنقطع الطرق والمسالك بسبب ذلك .

أنظر إلى ما خلق الله من المعادن ، وما يخرج منها من أنواع الجواهر المختلفة في منافعها وألوانها ، مثل الذهب والفضة ، والياقوت والزمرد ، والبستنجش ، وأشياء كثيرة من هذه الأحجار الشفافة المختلفة في ألوانها ، وأنواع أخرى مما يصلح للأعمال والجمال ، كالحديد والنحاس ، والقزدير والرصاص ، والكبريت والزرنيخ ، والتوتيا والرخام ، والجبس والنفط ، وأنواع لو عُدَّت لطلال ذكرها ، وهو مما ينتفع به الناس وينصرف فيما يصلحهم . فهذه نعم يسرها سبحانه لهم لعمارة هذه الدار .

ثم انظر إلى إرادة إجادة عمارتها وانتفاع العباد فيها ، يجعلها هشة سهلة ، بخلاف ما لو كانت على نحو خلق الجبال ، فلو يبست كذلك لتعذرت ، فإن الحرث لا يستقيم إلا مع رخو الأرض لزراعة الأقوات والثمر ، وإلا فلا يتعدى الماء إذا صلبت إلى الحب ، مع أن الحب لا يمكن دفنه إلا بعد أن تلين الأرض بالتداوة ، ويمكن إذ ذاك عملها وتحريكها حتى تشرب ما ينزل عليها من الماء ، فيخلق الله سبحانه عند ذلك العروق متلبسة بالثرى ، حتى يقف الشجر والنبات على ساقه ، وقد جعل ما يخلق من العروق يوازن ما يخلق من الفروع .

ومن رحمته في لينها أن يسر للناس حفر الآبار في المواضع المحتاجة إلى ذلك ، إذ لو حفرت في الجبال لصعب الأمر وشق . ومن الحكمة في لينها تيسير السير للسعاة فيها ، إذ لو صلبت لعرس السير ولم تظهر الطرق ، وقد نبه الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا »

مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»^(١) ؛ وقال تعالى : « وَجَعَلْنَا فِيهَا
فَجَاجًا مُّتَّبِعًا لَهُمْ يَمْتَدُونَ »^(٢) . ومن ذلك ما يستعين به العباد من
تراثها ولينها في البناء ، وعمل اللّبن وأواني الفخار ، وغير ذلك .
والمواضع التي ينبت فيها الملح والشب ، والبورق والكبريت ، أكثرها
تربة رخوة ، وأيضاً أجناس من النبات لا يوجد إلا في التراب والرمل
دون الأرض المَحَلَّة^(٣) . ويخلق فيها كثير من الحيوان لسهولة صفرها ،
فيتخذون فيها مسارب^(٤) ، وبيوتاً يأوون إليها .

ومن الحكمة فيها خلق المعادن كما ذكرنا ، فقد امتنَّ الله سبحانه
على سليمان عليه السلام بقوله : « وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ »^(٥) ،
أي سهلت له الانتفاع بالنحاس ، وأطلعناه على معدنه ؛ وقال امتناناً
على عباده : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ »^(٦)
والنزول بمعنى الخلق كما قال سبحانه : « وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ »^(٧)
أي وَخَلَقَ . وقد ألهمهم استخراج ما فيها من ذهب وفضة وغير
ذلك ، لمنافعهم وما يحتاجون إليه في معاشهم ، وفي اتخاذ أوانيهم ،
وفي ضبطها ما يحتاجون إلى ضبطه وتقويته ، واتخاذ أنواع من الحجارة

١ - الآية ١٥ / من سورة الملك .

٢ - الآية ٣١ / من سورة الانبياء .

٣ - يقال أرض « محلة » أي مجذبة ليس فيها مرعى ولا كَلَا (البستان معجم لغوي لعبد الله البستاني / ٢٢٣٧) .

٤ - « المسارب » جمع ، ومفرده سرب وهو الطريق (المصباح المنير للمعري / ١٢٤) .

٥ - الآية ١٢ / من سورة سبأ .

٦ - الآية ٢٥ / من سورة الحديد .

٧ - الآية ٦ / من سورة الزمر .

النفيسة لتبقى فيها كالزجاج ، ويتخذون منها أواني لحفظ ما يحصل
فيها من الأمور النفيسة لتبقى فيها سليمة لوقت الاحتياج إليها ،
إذ لا غنى لهم عنها ؛ وكذلك يستخرج من المعادن الأصكال ، مثل
(الذهبنج والمرقنعا) والسادن ، والتوتيا ، وغير ذلك من أصناف
ينتفعون بها ، فسبحان المنعم الكريم .

ومن الحكمة البالغة فيها خلق الجبال ، قال الله تعالى : « وَالْجِبَالِ
أَرْسَاهَا »^(١) ، وقال تعالى : « وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ
بِكُمْ »^(٢) ؛ وقال سبحانه : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ
فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ »^(٣) . فقد خلق سبحانه فيها الجبال لمنافع
متعددة ، لا يحيط بجميعها إلا الله ، فمن ذلك : أن الله تعالى أنزل من
السماء المياه ليحي بها العباد والبلاد . فلو كادت الأرض عارية عن
الجبال لحكم عليها الهواء وحر الشمس مع رخو الأرض ، فكانوا لا
يحدون المياه إلا بعد حفر وتعبد ومشقة ، فجعل سبحانه الجبال
لتستقر في بطونها المياه ، وتخرج منها أولاً بأول ، فتكون منها عيون
وانهار وبحار ، يرتوي بها العباد في أيام القيظ إلى أوان نزول غيث
السماء . وفي الجبال ما ليس في باطنها محل للمياه ، فجعل سبحانه
الثلج محفوظاً على ظاهرها إلى أن يحلّه حر الشمس ، فيكون منه أنهار
وسواقٍ يُنْتَفَعُ بها إلى أوان نزول الغيث أيضاً . ومنها ما يكون
فيه برك يستقر فيها الماء ، فيؤخذ منها وينتفع به .

١ - الآية ٣٢ / من سورة النازعات .

٢ - الآية ١٥ / من سورة النحل .

٣ - الآية ١٨ / من سورة المؤمنون .

في حكمة خلق البحر

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا * وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ * وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ * وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

اعلم رحمك الله : أن الله سبحانه وتعالى خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها ، فجعلها مكتنفةً لأقطار الأرض التي هي قطعة من الأرض المستورة بالبحر الأعظم المحيط بجميع الأرض ، حتى أن المكشوف من البراري والجبال عن الماء بالإضافة إلى الماء كربوة صغيرة في بحر عظيم ؛ فاعلم أن ما يخلق في الأرض من الحيوان بالإضافة إلى ما خلق في البحر كإضافة الأرض إلى البحر ، وقد شاهدت عجائب ما هو مكشوف منها ، فتأمل عجائب البحر فإن فيه من الحيوان والجواهر والطيب أضعاف ما تشاهده على وجه الأرض ، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض ؛ ولعظم سعته كان فيه من الحيوانات والدواب العظيمة ما إذا

ومن منافع الجبال ما ينبت فيها من أنواع الأشجار والعقاقير التي لا توجد إلا فيها ، وما ينبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة ، فيعمل منها السفن ، وتعمر منها المساكن ، وفيها الشعار (١) التي لا يوجد ما يعظم من الأخشاب إلا فيها ، وكذلك العقاقير أكثرها لا يوجد إلا بها .

وفيها وهاد تنبت مزارع للأنعام ، ومزارع لبني آدم ، ومساكن للوحوش ، ومواضع لأجل النحل . ومن منافع الجبال ما يتخذ العباد من المساكن تقيهم الحر والبرد ، ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى ، وقد ذكر الله ذلك فقال : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ (٢) . ومن فوائد الجبال أنها جعلت اعلماً يستدل بها المسافرون على الطرقات في نواحي الأرض ، ويستدل بها المسافرون في البحار على الموانئ والسواحل ؛ ومن فوائد ما أن الفئة القليلة الخائفة من عدوان من تطيقه تتخذ عليها ما يحصنهم ويؤمنهم ، ويعنمها من تخافه فتطمئن لذلك .

ثم انظر كيف خلق الله فيها الذهب والفضة ، وقدرهما بتقدير مخصوص ، ولم يجعل ذلك ميسراً في الوجود والقدر مع سعة قدرته وشمول نعمته ، كما جعل هذه السعة في المياه ، وما ذلك إلا لما سبق في علمه لخلائقه مما هو الأصلح كما أشار إلى ذلك بقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (٣) . فسبحان العليم الحكيم .

١ - «الشعار» بالفتح كثرة الشجر بالأرض (المصباح المنير للقرني ١/ ١٤٣) .

٢ - الآية ٨٢ / من سورة الحجر .

٣ - الآية ٢١ / من سورة الحجر .

١ - الآية ١٤ / من سورة النحل .

أبدت ظهورها على وجه البحر ظن من يراها أنها حشاف^(١) ، وجبال أو جزائر .

وما من صنف من أصناف حيوان البر من إنسان ، وطائر ، وفرس ، وبقر ، وغير ذلك إلا وفي البحر أمثالها وأضعافها . وفيه أجناس من الحيوانات لم تعهد أمثالها في البر ، وكل منها قد دبره البارئ سبحانه ، وخلق فيه ما يحتاجه ويصلحه ، ولو استقصي ذكر ما يحتويه بعضه لاحتاج إلى وضع مجلدات .

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ مدوراً في صدف تحت الماء ، وأثبت المرجان في جنح صخور في البحر ، فقال سبحانه : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ »^(٢) ، وذلك في معرض الامتنان ، وقيل المرجان المذكور في القرآن هو الرقيق من اللؤلؤ ، ثم قال « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ »^(٣) ، وآلاؤه : تفضله ونعمته .

ثم انظر ما يقذفه من العنبر وغيره من المنفوع ، ثم انظر إلى عجائب السفن ، وكيف مسكها على وجه الماء تسير فيها العباد لطلب الأموال ، وتحصيل ما لهم من الأغراض ، وجعلها من آياته ونعمته ، فقال سبحانه :

١ - الحشف هو التمر الذي يحف ويبيس من غير نضج ، فلا يكون له لحم (المصباح المنير للمعري ١/٦٤) .

٢ - الآية ٢٢ / من سورة الرحمن .

٣ - الآية ٢٣ / من سورة الرحمن .

﴿ وَالْفُلُوكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾^(١) . فجعلها بتسخيره تحملهم وتحمل أثقالهم ، وينتقلون بها من أقاليم إلى أقاليم لا يمكن وصولهم إليها إلا بالسفن ، ولو راموا التوصل بغيرها لأدى إلى أعظم المشقات ، وعجزوا عن نقل ما ينقل من المنقولات إلى ما يبعد من البلاد والجهات . فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يلطف بعباده ويهون ذلك عليهم ، خلق الأخشاب متخلخلة الأجزاء بالهواء ليحملها الماء ، ويبقى فيها من الفضاء عن نفسها ما يحمل به الانتقال ، وألهم العباد اتخاذها سفناً ، ثم أرسل الرياح بمقادير ، في أوقات تسوق السفن وتسييرها من موضع إلى موضع آخر ، ثم ألهم أربابها معرفة أوقات هبوبها وفترتها ، حتى يسيروا بالرياح التي تحمل شرايعها .

وانظر إلى ما يسره سبحانه في خلقه الماء ، إذ هو جسم لطيف رقيق سيال متصل الأجزاء كأنه شيء واحد ، لطيف التركيب ، سريع القبول للتقطع ، حتى وكأنه منفصل مسخر للتصرف ، قابل للاتصال والانفصال حتى يمكن سير السفن فيه ، فالعجب ممن يغفل عن نعمة الله في هذا كله ، وفي بعضه متسع للفكر ، وكل ذلك شواهد متظاهرة ، ودلائل متضافرة ، وآيات ناطقة بلسان حالها ، مفصحة عن جلال بارئها ، معربة عن كمال قدرته وعجائب حكمته قائلة : أما ترى تصوري وتركيبي وصفاتي ، واختلاف حالي وكثرة فوائدي ؟ أيظن ذو لب سليم ، وعقل رصين أني تلونت بنفسي ؟ أو أبدعني أحد من جنسي ؟ بل صنع القادر القهار ، العزيز الجبار .

١ - الآية ١٦٤ / من سورة البقرة .

في حكمة خلق الماء

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ * أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) وقال سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ * مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا * أَلَمْ مَعَ اللَّهُ * بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ ^(٢) .

أنظر وفقك الله إلى ما من به سبحانه وتعالى على عباده بوجود الماء العذب ، الذي به حياة كلها من على وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو اضطر الإنسان إلى شربة منه ومنع منها لكان عليه أن يبذل فيها جميع ما يمكنه من خزائن الدنيا ، والعجب من غفلة العباد عن هذه النعمة العظيمة .

وانظر مع شدة الحاجة إليها كيف وسع سبحانه على العباد فيها ، ولو جعلها بقدر لضايق الأمر فيها ، وعظم الحرج على كل من سكن

١ - الآية ٣٠ من سورة الأنبياء .

٢ - الآية ٦٠ من سورة النمل .

الدنيا ، ثم انظر لطافة الماء ورقته حتى ينزل من الأرض ، ويخلخل أجزائها ، فتتغذى عروق الشجر ، ويصعد بلطافته بواسطة حرارة الشمس إلى أعالي الشجر والنبات ، وهو من طبيعه الهبوط .

ولما كانت الضرورة تدعو إلى شربه لإماعة الأغذية في أجواف الحيوان ، لينصرف إلى موضعه ، جعل لشربه في شربه لذة عند حاجته إليه ، وقبوله به ، ويحد شربه فيه نعيماً وراحة . وجعله مزيلاً للأدران عن الأبدان ، والأوساخ عن الثياب وغيرها . وبالماء يبل التراب فيصلح للبناء والأعمال ، وبه يرطب كل ما يبس مما لا يمكن استعماله يابساً ، وبه ترق الأشربة فيسوغ شربها ، وبه تطفأ عاذبة النار ، وإذا وقع فيها فلا تلتهب فيه إذا ما أشرف الناس منها على ما يكرهون ، وبه تزول الفصّة إذا أشرف صاحبها على الموت ؛ وبه يفتسل التعب فيجد صاحبه الراحة لوقته ؛ وبه تستقيم المطبوعات ، وجميع الأشياء التي لا تستعمل ولا تصلح إلا رطبة ، إلى غير ذلك من مآرب العباد التي لا غنى لهم عنها .

فانظر في عموم هذه النعمة ، وسهولة تناولها مع الغفلة عن قدرها ، ومع شدة الحاجة إليها ، فلو ضاقت لكدرت الحياة في الدنيا ، فعمل بهذا أن الله تبارك وتعالى أراد بإنزاله وتيسيره عمارة الدنيا بما فيها من حيوان ونبات ومعدن ، إلى غير ذلك من المنافع التي يقصر عنها لمن يروم حصرها ؛ فسبحان المتفضل العظيم .

في حكمة خلق الهواء

قال الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ * فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ * وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (١).

إعلم رحمك الله أن الهواء في خلقه تتخلله الرياح ، ولولا ذلك لهلك جميع حيوان البر ، وباستنشاقه تعتدل الحرارة في أجسام جميع الحيوانات ، لأنه لهم مثل الماء لحيوان البحر ، فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه لانصرفت الحرارة التي في الحيوانات إلى قلبها ، فكان هلاكها بسبب ذلك .

ثم انظر إلى الحكمة في سَوِّقِ السحاب به ، فيقطع المطر بانتقال السحاب إلى موضع يُحتاج إلى المطر فيه للزراعة ، فلولا لطف الباري بخلق الرياح لثقلت السحاب وبقيت راكدة في أماكنها ، وامتنع انتفاع الأرض بها .

ثم انظر كيف تسير السفن بها ، وتنتقل بجدوئها وهبوبها ، فتحمل ما فيها من أقاليم إلى أقاليم مما لم يخلق تلك الأشياء فيها ، فينتفع أهلها بها ، فلولا تنقلها بالهواء لم تكن تلك الأشياء إلا بمواضعها التي خلقت فيها خاصة ، ولمسرُ نقلها بالدواب إلى غيرها من الأقاليم . وللعباد ضرورات تدعو إلى ما ينقل إليهم مما ليس عندهم ، ومنافع يكثر تعدادها من طلب أرباح لمن يجلبها ويعلم فوائدها .

ثم انظر إلى ما في الهواء من اللطافة والحركة التي تتخلل أجزاء العالم ، فيُنْقِشِي بحركته عفن الأرض ، فلولا لعفت المساكين ، وهلك الحيوان بالوباء والعلل . ثم انظر إلى ما يحصل منه من النفع في نقل السواني والزمال إلى البساتين ، وتقوية أشجارها بما ينتقل إليها من التراب بسبب حركة الهواء ، وتستقر وجوه جبال بالناسقي ، فيمكن الزراعة فيه ، وما فضل إلى السواحل مما ينتفع الناس بسببه ، وكل ذلك بحركة البحر بالهواء ، فيقذف البحر العنبر وغيره ، مما ينتفع به العباد في أمورهم .

ثم انظر كيف يتفرق المطر بسبب حركة الهواء ، فيقع على الأرض قطرات ، فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل انصبابة واحدة فيهلك ما يقع عليه ، ثم يجتمع بلل القطرات فيجتمع أنهاراً وبحاراً على وجه الأرض من غير تضرر ، ويحصل بذلك مقصودهم على أحسن وجه ، فانظر إلى أثر رحمة الله ، فسبحان اللطيف بخلقهم ، المدبّر للملك . ثم انظر إلى عموم هذه الرحمة وعظيم نفعها ، وشمول هذه النعمة وجليل قدرها ، كما نبه العقول عليها بقوله تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ *
وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ
وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ *
إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

ثم من تمام النعمة وعظيم الحكمة ، أن جعل سبحانه الصحو يتخلل نزول الغيث ، فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم ، فلو دام واحد منهما عليه لكان فساداً ، ألا ترى إلى الأمطار إذا توالى وكثرت عفنت البقول والخضروات ، وهدمت المساكن والبيوت ، وقطعت السبل ومنعت من الأسفار ، وكثير من الحرف والصناعات ، ولو دام الصحو لجفت الأبدان والنبات وعفن الماء الذي في العيون والأودية ، فأضر ذلك بالعباد ، وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً آخر من الأمراض ، وغلّت بسببه الأقوات ، وبطل المرعى ، وتعذر على النحل ما يجدونه من الرطوبة التي يراها على الأزهار .

وإذا تعاقبا - للصحو والمطر - على العالم اعتدل الهواء ، ودفع كل منها ضرر الآخر ، فصلحت الأشياء واستقامت ، وهذا هو الغالب من مشيئة الله . فإن قيل قد يقع من أحدهما ضرر في بعض الاوقات ، قلنا قد يكون ذلك لتنبيه الإنسان بتضاد الأشياء على نعمة الله وفضله ورحمته وأنه هو الغالب ، فيتحصل لهم بذلك انزجار عن الظلم والعصيان ، ألا ترى من سقم جسمه احتاج إلى ما يلائمه من

الأدوية البشعة الكريمة ليصلح جسمه ، ويصح ما يفسد منه ، قال الله تعالى : ﴿وَلَكِنْ يُنْزَلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ * إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(١).



في حكمة خلق النار

قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقَنِّينَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝ ١١ 〉

اعلم وفقنا الله وإياك : أن الله خلق النار ، وهي من أعظم النعم على عباده ، ولما علم سبحانه وتعالى أن كثرتها وبثها في العالم مفسدة ، جعلها الله بحكمته محصورة ، حتى إذا احتيج إليها وُجِدَتْ واستعملت في كل أمر يُحتاج إليها فيه . فهي مخزونة في الأجسام ، ومنافعها كثيرة لا تحصى ، فمنها ما تصلحه من الطبائخ والأشربة التي لولاها لم يحصل فيها نضج ولا تركيب ولا اختلاط ، ولا صحة هضم لمن لا يستعملها في أكل وشرب ، فانظر لطف الباري سبحانه في هذا الأمر المهم .

ثم انظر فيما يحتاج الناس إليه من الذهب ، والفضة والنحاس ، والحديد والرصاص والقصدير ، وغير ذلك . فلولاها لم يكن شيء من الانتفاع من هذه الأشياء ، فبها يُذاب النحاس فتعمل منه الأواني وغيرها ، وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك بأنها نعمة توجب الشكر ، فقال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا * وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ۝ ١١ 〉 . وبها يلين الحديد ، فيعملون به أنواعاً من المنافع والآلات للحروب ، مثل الدروع والسيوف ، إلى غير ذلك مما يطول مقداره ، وقد نبه الله تعالى على مثل هذا فقال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ۝ ٢٥ 〉 ؛ وقال تعالى : ﴿ لِيُخَصِّنْكُمْ مِنَ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ۝ ٣١ 〉 ؟ ومن الحديد يعمل آلات للحرث والحصاد ، وآلات لا تتأثر بالنار ، وآلات يطرق بها ، وآلات لقطع الجبال الصماء ، وآلات لنجارة الأخشاب مما يكثر تعدادها ، فلولا لطف الله سبحانه بخلق النار لم يحصل من ذلك شيء من المنافع ، ولولاها لما كان يتبها للخلق من الذهب والفضة نقود ولا زينة ولا منفعة ، ولكانت هذه الجواهر معدودة من جملة الأتربة .

ثم انظر إلى ما جعل الله تعالى في النار من الفرح والترويح عندما تغشى ظلمة الليل ، فيستضيئون بها ، ويهتدون بنورها في جميع

١ - الآية ١٣ / من سورة سبأ .

٢ - الآية ٢٥ / من سورة الحديد .

٣ - الآية ٨٠ / من سورة الانبياء .

في حكمة خلق الانسان

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً * فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً * فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا * فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ * فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (١) .

اعلم وفقك الله تعالى : أن الله عز وجل لما سبق في علمه خلق بني آدم ، وبشهم في هذه الدار وتكليفهم فيها للبلوى والاختبار ، خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض ، فخلق سبحانه الذكر والأنثى ، وألقى في قلوبهم المحبة والدواعي ، حتى عجزوا عن الصبر ، وعُدِموا الحيلة في اجتناب الشهوة ، فساقتهم الشهوة المفطورة في خلقهم إلى الاجتماع ، وجعل الفكرة تحرك عضواً مخصوصاً به إلى إيداع الماء

أحوالهم من أكل وشرب ، وتمهيد مراقده ، ورؤية ما يؤذيهم ، ومؤانسة مرضاهم ، والعمل عليها برأ وبحراً ، فيجدون بوجودها أنساً ، حتى كأن الشمس لم تغب عن أفقهم ، ويدفعون بها ضرر الشلوج ، والرياح الباردة ، ويستعينون بها في الحروب ، ومقاومة حصون لا يملك إلا بها ؛ فانظر ما أعظم قدر هذه النعمة التي جعل سبحانه حكمها بأيديهم ، إن شاءوا خزنوها ، وإن شاءوا أبرزوها .



وجعل شعر الرأس واللحية قابلاً للزيادة والنقص ، فيفعل فيها ما يقصد به الجمال من غير تشويه .

ثم انظر إلى القم واللسان ، وما في ذلك من الحكيم ، فجعل الشفتين ستراً للقم ، كأنها باب يفتح وقت ارتقاع الحاجة إلى فتحه ، وهو ستر على اللثة والأسنان ، مفيد للجمال ، فلولاهما تشوهت الحلقة ، ومما معينان على الكلام هو اللسان للنطق والتعبير عما في ضمير الإنسان ، وتقليب الطعام ، وإلقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه ، ويسهل ابتلاعه .

ثم جعل الأسنان أعداداً مفترقة ، ولم تكن عظماً واحداً ، فإن أصاب بعضها ثلثم انتفع بالباقي ، وجمع فيها بين النفع والجمال ، وجعل ما كان منها معكوساً زائداً الشعب حتى تطول مدته مع الصنف الذي تحته ، وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لدعاء الحاجة إليها على الدوام ، وفي الأضراس كبر وتسريف لأجل الحاجة إلى درس الغذاء ، فإن المضغ هو الهضم الأول ، وجعلت الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام ، وجمالاً للقم ، فأحكم أصولها ، وحدد ضروسها ، وبيض لونها مع حمرة ما حولها ، متساوية الرؤوس ، متناسبة التركيب ، كأنها الدر المنظوم .

ثم انظر كيف خلق في القم نداوة محبوسة ، لا تظهر إلا في وقت الحاجة إليها ، فلو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشوهاً للإنسان ، فجعلت ليبل بها ما يمضغ من الطعام حتى يسهل تسويفه من غير عنت ولا ألم ، فإذا فقد الأكل عذمت تلك النداة الزائدة التي خلقت

في القرار المكين ، الذي يخلق فيه الجنين ، فاجتمعت فيه النطفة من سائر البدن ، وخرجت ماء دافقاً مندفعاً بين الصلب والترائب بحركة مخصوصة ، فانتقلت بسبب الافلاج من باطن إلى باطن ، فكانت مع انتقالها باقية على أصلها ، لأنها ماء مهين ، أدنى شيء يباشرها يفسدها ، ويغير أصلها ومزاجها ، فهي ماء يختلط جميعه بنسب تستوي فيه أجزاءه ، لا تفاوت فيها بحال ، فخلق سبحانه منه الذكر والأنثى بعد تقلبه من النطفة إلى العلقة ، إلى المضغة إلى العظام ، ثم كساها اللحم ، وشدها بالأعصاب والأوتار ، ونسجها بالعروق ، وخلق الأعضاء وركبها : فدون سبحانه الرأس ، وشق فيها السمع والبصر ، والأنف والفم ، وسائر المنافذ :

فجعل للعين البصر ، ومن العجائب سر كونها مبصرة للأشياء ، وهو أمر يعجز عن شرح سره ، وركبها من سبع طبقات ، لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة بها ، فلو فقدت طبقة منها أو زالت لتعطلت عن الإبصار . وانظر إلى هيئة الأشعار التي تحيط بها ، وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقي العين مما يصل إليها مما يؤذيها من غبار وغيره ، فكانت الأشعار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ، ويفلق في غير وقتها ، ولما كان المقصود من الأشعار جمال العين والوجه جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ، ولا ينقص نقصاً يضر بها . وخلق في مائها ملوحة لتقطيع مما يقع فيها ، وجعل طرفيها منخفضين عن وسطها قليلاً ، لينصرف ما يقع في العين لأحد الجانبين . وجعل الحاجبين جمالاً للوجه ، وسترًا للعينين ، وشعرهما يشبه الأهداب في عدم الزيادة المشوهة .

للترطيب ، وبقي منها ما يبيل اللهاة والخلق ، لتصوير الكلام ، وللألف
الفم ، فإن جفافه مهلك للإنسان .

ثم انظر إلى رحمة الله ولطفه : إذ جعل للآكل لذة الأكل ، فجعل
الذوق في اللسان وغيره من أجزاء الفم ، ليعرف بالذوق ما يوافقه
ويلائمه من المأذون ، فيجد في ذلك راحة في الطعام والشراب إذا دعت
حاجة إلى تناوله ، وليجنب الشيء الذي لا يوافقه ، ويعرف بذلك
حد ما تصل الأشياء إليه في الحرارة والبرودة .

ثم إن الله تعالى شق السمع ، وأودعه رطوبة مرة ، يحتفظ بها
السمع من ضرر الدود ، ويقتل أكثر الهوام الذين يلجئون السمع ،
وحفظ الأذن بصدفة لتجمع الصوت فتدفعه إلى صماخها ، وجعل فيها
زيادة حس ، لتحسن بما يصل إليها مما يؤديها من هوام وغيرها ، وجعل
فيها تعويجات ليتردد فيها الصوت ، ولتكثر حركة ما يدب فيها ،
ويطول طريقه ، فيتأثر وينتبه صاحبها من النوم .

ثم انظر إلى ادراك المشمومات بواسطة ولوج الهواء ، وذلك سر
لا يعلم حقيقته إلا الباري سبحانه ، إلى غير ذلك . ثم انظر كيف
رفع الأنف فأحسن شكله ، وفتح منخره ، وجعل فيها حاسة الشم ،
ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعه ومشاربه ، وليتنعم بالروائح
العطرة ، ويتجنب الخبائث القذرة ، وليستنشق أيضاً روح الحياة
غذاءً لقلبه ، وترويحاً لحرارة باطنه .

ثم خلق الحنجرة ، وهياًها لخروج الأصوات ، ودور اللسان في

الحركات والتقطيعات ، فيقطع الصوت في مجاري مختلفة ، تختلف بها
الحروف لتسع طرق النطق . وجعل الحنجرة مختلفة الأشكال في
الضيق والسعة ، والخشونة والملاسة ، وصلابة الجوهر ورخاوته ،
والطول والقصر ، حتى اختلفت بسبب ذلك الأصوات ، فلم يشابه
صوتان ، كما خلق بين كل صورتين اختلافاً ، فلم تشبه صورتان ، بل
يظهر بين كل صورتين فرقان ، حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض
بمجرد الصوت ، وكذلك يظهر بين كل شخصين فرقان ، وذلك لسر
التعارف ، فإن الله تعالى لما خلق آدم وحواء خالف بين صورتيهما ،
فخلق منها خلقاً جعله مخالفاً لخلق أبيه وأمه ، ثم توالى الخلق كذلك
لسر التعارف .

ثم انظر لخلق اليدين ، يهدين إلى جلب المقاصد ودفع المضار ،
وكيف عرّض الكف وقسم الأصابع بأنامل ، وجعل الأربعة في
جانب والابهام في جانب ، فيدور الابهام على الجميع ، فلو اجتمع
الأولون والآخرين ، على أن يستطيعوا بدقيق الفكر وجهاً آخر عن
وضع الأصابع ، سوى ما وضعت عليه من بعد الابهام عن الأربعة ،
وتفاوت الأربعة في الطول ، وترتيبها في صف واحد لم يقدروا على
ذلك ، وبهذا الوضع صلح القبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت طبقة
يضع عليه ما يريد ، وإن جمعها كانت آلة يضرب بها ، وإن ضمها
ضمّاً غير تام كانت مغرفة له ، وإن بسطها وضم أصابعه كانت مجرفة .

ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل ، وعماداً لها من ورائها ،
حتى لا تضعف ، ويلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل
لولاها ، وليجك بها جسمه عند الحاجة إلى ذلك .

فانظر أقل الأشياء في جسمه لو عُدِمَها وظهرت به حكمة لكان أضعف الخلق ، وأعجزهم عن دفع ما يؤلمه ، وجلب ما ينتفع به في ذلك ، ولم يقم له غير الظفر مقامه في حرك جسمه ، لأنه مخلوق لذلك ولغيره ، فهو لا صلب كصلابة العظام ، ولا رخو كرخاوة الجلد ، يطول ويخلق ، ويَقْصُر ، ويقصر لمثل ذلك . ثم جعله يهتدي به إلى الحِكْمِ في حالة نومه ويقظته ، ويقصد المواقع إلى جهتها من جسمه ، ولو احتاج إلى غيره واستعان به في حركها لم يعثر الغير على مواضع الحاجة إلا بعد طول وتعب .

ثم انظر كيف مَدَّ منه الفخذ والساقين ، وبَسَطَ القدمين ، ليتمكن بذلك من السعي ، وزَيَّنَ القدمين بالأصابع ، وجعلها زينة وقوة على السعي ، وزَيَّنَ الأصابع أيضاً بالأظفار ، وقوّاهما بها .

ثم انظر كيف خلق الله هذا كله من نطفة مهينة ، ثم خلق منها عظام جسمه ، فجعلها أجساماً قوية صلبة ، لتكون قواماً للبدن وعماداً له ، وقدرها تبارك وتعالى بمقادير مختلفة وأشكال متناسبة ، فمنها صغير وطويل ، ومستدير ومجوف ، ومصمت وعريض ودقيق . ثم أودع في أنابيب هذه العظام المخ الرقيق ، مصاناً لمصلحتها وتقويتها ، ولما كان الإنسان محتاجاً إلى جملة جسمه وبعض أعضائه لتردده في حاجاته ، لم يجعل الله سبحانه عظامه عظماً واحداً ، بل عظاماً كثيرة وبينها مفاصل ، حتى تتيسر بها الحركة ، فقدّر شكل كل واحدة منها على قدر ، وفتق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها ، وربط بعضها ببعض ، بأوتار أثبتها بأحد طرفي العظم ، وألصق الطرف الآخر كالرباط ، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منها ،

ومن الآخر نقرأ غائصة فيها ، توافق لأشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق ، فصار الإنسان إذا أراد أن يحرك شيئاً من جسده دون غيره لم يمتنع عليه ، فلو لا حكمة خلق المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم انظر كيف جعل خلق الرأس مركباً من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور ، وألف بعضها إلى بعض ، بحيث استوت كرة الرأس كما ترى ، فمنها ستة تختص بالقحف^(١) ، وأربعة وعشرون لللحمي^(٢) الأعلى ، واثنان للحمي الأسفل ، والبقية من الأسنان بعضها عريض يصلح للطحن ، وبعضها حاد يصلح للقطع .

ثم جعل الرقبة مركز الرأس فركّبها من سبع خرزات محوقات مستديرات ، وزيادات ونقصان ، لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر الحكمة فيها . ثم ركّب الرقبة على الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربعة وعشرين خرزة ، وعظم العجز ثلاثة أخرى مختلفة ، ووصل به عن أسفله العصعوص ، وهو مؤلف من ثلاثة أخرى ، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف ، وعظام اليدين ، وعظام العانة ، وعظام العجز ، وعظام الفخذين والساقين ، وأصابع الرجلين . فجعل جملة عدد العظام في بدن الإنسان مائتي عظم وثمانية وأربعين عظماً ، سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفاصل .

١ - القحف : أطل الدماغ (الصباح النير للمقري ٢ / ٦٤) .

٢ - اللحمي : عظم الحنك ، وهو الذي عليه الأسنان (الصباح النير للمقري ٢ / ٩٣) .

فانظر كيف خلق الباري سبحانه وتعالى ذلك كله من نطفة رقيقة
سخيفة ، والمقصود من ذكر أعدادها تعظيم مدبرها وخالقها ، وكيف
خلقها وخالف بني أشكالها ، وخصها بهذا القدر المخصوص ، بحيث
لو ازداد فيها عظم واحد لكان وبالاً ، واحتاج الإنسان إلى قلعه ،
ولو نقص منها واحد لاحتاج الإنسان إلى جبره ، وجعل سبحانه وتعالى
في هذا الخلق عبرة لأولي الأبصار ، وآيات بينات على عظمته وجلاله ،
بتقديرها وتصويرها .

ثم انظر كيف خلق سبحانه آلات لتحريك العظام ، وهي
المضلات ، فخلق في بدن الإنسان خمسمائة وتسعة وعشرين عضلة ،
والعضلة مركبة من لحم وعصب ، ورباط وأغشية ، وهي مختلفة
المقادير والأشكال ، بحسب اختلاف مواضعها وحاجاتها ، فأربعة
وعشرون منها لحركة العين وأجفانها ، بحيث لو نقصت منها واحدة
اختل أمر العين ، وهكذا لكل عضو عضلات بعدد يخصه وقدر
يوافقه .

وأما أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرابين ، ومنابشها
وسعتها فأعجب من هذا ، وشرحه يطول . ثم عجائب ما فيه من
المعاني التي لا تدرك بالحواس أعظم .

ثم انظر إلى ما شرف به (الإنسان) وخصص في خلقه ، بأنه
خلق ينتصب قائماً ، ويستوي جالساً ، ويستقبل الأمور بيديه
وجوارحه ، ويمكنه العلاج والعمل ، ولم يخلق مكبواً على وجهه كعدة
من الحيوانات ، إذ لو كان كذلك لما استطاع هذه الأعمال .

ثم انظر من حيث الجملة إلى ظاهر الإنسان وباطنه ، فتجده
مصنوعاً صنعة بحكمة تقضي منها العجب ، وقد جعل سبحانه أعضائه
قائمة بالغذاء ، والغذاء متوال عليها ، لكنه تبارك وتعالى قدرها بمقادير
لا يتعداها ، بل يقف عندها ولا يزيد عليها ، فإنها لو تزايدت بتوالي
الغذاء عليها لعظمت أبدان بني آدم ، وثقلت عن الحركة ، وعطلت
عن الصناعات اللطيفة ، ولا تناولت من الغذاء ما يناسبها ، ومن اللباس
كذلك ، ومن المساكن مثل ذلك ، وكان من بليغ الحكمة وحسن
التدبير وقوفها على هذا الحد المقدر ، رحمة من الله ورفقاً بخلقه ،
فإذا وجدت هذا كله صنعة الله من قطرة ماء ، فما ظنك بصنعته في
ملكوت السموات والأرض ، وشمسها وقمرها وكواكبها ؟ وما حكته
في أقدارها وأشكالها ؟ وأعدادها وأوضاعها ؟ واجتماع بعضها وافتراق
بعضها ، واختلاف صورها ، وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟ فلا تظن
أن ذرة في السموات والأرض ، وسائر عالم الله ينفك عن حكمه ،
بل ذلك مشتمل على عجائب وحكم لا يحيط بجميعها إلا الله سبحانه
وتعالى ، ألم تسمع قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ
بُنِيهَا ﴾ ^(١) ؟ إلى آخر ما نبه به تعالى ^(٢) .

وتأمل لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعاً وبصراً

١ - الآية ٢٧ / من سورة النازعات .

٢ - الآيات الكريمة : « أَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ بُنِيهَا » . رفع سمعها فسمعا .
وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاما . أخرج منها
مادها ومرعاهما . والجنال أرسارها . متاعاً لكم ولانعامكم .

النازعات / ٢٧ - ٣٣ .

وحياة لم يقدروا على ذلك ؛ فانظر كيف خلقها سبحانه في الأرحام ،
وشكلها فأحسن تشكيلها ، وقدرها فأحسن تقديرها ، وصورها فأحسن
تصويرها ، وقسم أجزائها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة ، فأحكم العظام
في أرجائها ، وحسن أشكال أعضائها ، ورتب عروقها وأعصابها ،
ودبر ظاهرها وباطنها ، وجعل فيها مجرى لغذائها ، ليكون ذلك سبباً
لبقاءها مدة حياتها ، ثم كيف رتب الأعضاء الباطنة ، من القلب
والكبد ، والمعدة والطحال ، والرئة والرحم ، والمثانة والأمعاء ،
وكل عضو بشكل مخصوص ، ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ،
فجعل المعدة لنضج الغذاء عصباً متيناً شديداً لحاجتها إلى ذلك ،
وبذلك يمكن تقطيعه وطحنه ، وجعل طحن الأضراس أولاً معيناً
للمعدة على جودة طحنه وهضمه . وجعل الكبد لإحالة الغذاء إلى
الدم ، فيجذب منه إلى كل عضو من الغذاء ما يناسبه ، فغذاء العظم
خلاف غذاء اللحم ، وغذاء العروق خلاف غذاء الأعصاب ، وغذاء
الشعر خلاف غذاء غيره ؛ وجعل الطحال والمرارة والكلية لخدمة
الكبد ، فالطحال لجذب السوداء ، والمرارة لجذب الصفراء ، والكلية
لجذب الماء عنه ، والمثانة لقبول الماء عن الكلية ، ثم يخرجها في مجرى
الاحليل ؛ والعروق لاتصال الدم منها إلى سائر أطراف البدن ، وجعل
جوهرها أثقن من جوهر اللحم ، لتصون الدم وتحصره ، فهي بمنزلة
الظروف والأوعية .

ثم انظر كيف دبّره في الرحم ، ولطف به ألطافاً يطول شرحها ،
ولا يستكمل العلم يحملتها إلا خالقها ، ويعجز الواصف عن وصف ما
وصل إليه نظره من ذلك ، فمن ذلك جعله فيه لا يحتاج إلى استدعاء ،

ولا يحتاج المولود إلى ما يبين له ذلك ، لا بوعظ ولا تنبيه ، بل ذلك
في الطباع إلى وقت حاجة المولود إلى الإغاثة في غذائه ، ولولا ذلك
لنفرت الأمهات عنه من شدة التعب ، وكلفة التربية . حتى إذا اشتد
جسمه وقويت أعضاؤه الظاهرة والباطنة لهضم الغذاء ، فحينئذ أنبت
له الأسنان عند الحاجة إليها لا قبل ذلك ولا بعده .

ثم انظر كيف خلق الله فيه التمييز والعقل على التدرج إلى حين
كماله وبلوغه ، وانظر وفكر في سرّ كونه يولد جاهلاً غير ذي عقل
وفهم ، فإنه لو كان ولد عاقلاً فيها لأنكر الوجود عند خروجه إليه ،
حتى يبقى حيراناً تائه العقل ، إذ رأى ما لا يعرف ، وورد عليه ما لم
يره ولم يعهده مثله . ثم كان يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولاً وموضوعاً
معصياً بالخرق ، ومنجى في المهد ، مع كونه لا يستغني عن هذا كله ،
لرقة بدنه ورطوبته حتى يولد . ثم كان لا يوجد له من الرقة والحلاوة
والحبة في القلوب ما يوجد للصغير ، لكثرة اعتراضه بعقلة ، واختياره
لنفسه ، فتبين أن زيادة العقل والفهم فيه على التدرج أصلح به^(١) .
أفلا يرى كيف أقام الله كل شيء فيه من الخلقة على غاية الحكمة وطريق
الصواب ؟ وأعلمه تقلب الخطأ في دقيقة وجلية ؟

ثم انظر فيما إذا اشتد ، خلق فيه طريقاً وسبباً للتناسل ، وخلق
في وجهه شعراً ليميزه عن شبه الصبيان والنسوان ، ويحمّله ويستربه

١ - وفي ذلك يقول الله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون
شيئاً * وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » .
(النحل / ٧٨)

غصون رجه عند شيخوخته ، وإن كانت أنثى أبقى وجهها نقياً من الشعر ، لتبقى لها بهجة ونضارة تحرك الرجال ، لما في ذلك من بقاء النسل .

فكّر الآن فيما ذكرناه ودبره سبحانه في هذه الأحوال المختلفة ، هل ترى مثل هذا يمكن أن يكون مُهملاً ؟ أرايت لو لم يجر له الدم غذاء وهو في الرحم ؟ ألم يكن يذوي ويهلك ويحف النبات إذا انقطع عنه الماء ؟ ولو لم يزعجه المخاض عند استكمال ، ألم يكن يهلك ببقائه في الرحم هو وأمه ؟ ولو لم يوافق اللبن عند ولادته ، ألم يكن يموت جوعاً وعطشاً ؟ أو يغذى بما لا يوافق ولا يصلح عليه بدنه ؟ ولو لم يخلق له الأسنان في وقتها ، ألم يكن يمتنع عليه مضغ الطعام وازدراؤه ؟ ويقم على الرضاع ولا يشتد جسمه ؟ ولو لم يخرج له شعر الوجه لبقى في هيئة النساء والصبيان ؟ فلا ترى له هيئة ولا جلاً ولا وقاراً ؟ ومن ذا الذي يرصده حتى يوفيه بكل هذه المآرب في وقتها إلا الذي أنشأه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً^(١) ؟ وتفضل عليه ، ومنّ عليه بكل هذه النعم ؟

فكّر في شهوة الجماع الداعية لحياته ، والآلة الموصلة إلى الرحم النطفة ، والحركة الموجبة لاستخراج النطفة ، وما في ذلك من التدبير المحكم . ثم فكّر في جملة أعضاء البدن ، وتهيئة كل عضوها للأرب^(٢)

١ - قال تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً .

إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه بصيراً . إنا هديناه السبيل

إما شاكراً وإما كفوراً » الإنسان / ١ - ٣ .

٢ - الأرب : الحاجة (المصباح المنير للمقري / ١ / ٧) .

الذي أريد منها ؛ فالعينان للأهتداء بالنظر ، واليدان للعلاج والحذف والدفع ، والرجلان للسعي ، والمعدة لهضم الطعام ، والكبد للتخليص والتمييز ، والفم للكلام ودخول الغذاء ، والمنافذ لدفع الفضلات ، وإذا تأملت كذلك مع سائر ما في الإنسان وجدته قد وُضع على غاية الحكمة والصواب .

فكّر في وصول الغذاء إلى المعدة حتى تنضجه ، وتبث صفوه إلى الكبد في عروق دقاق قد جعلت كالمصفاة للغذاء ، ولكيلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فيسكنوها ، فإنها خلقت دقيقة لا تحمل الغث ، فتقبله بإذن الله دماً ، وتنفذ به إلى سائر البدن في مجاري مهياة لذلك ، فيصل إلى كل شيء من ذلك ما يناسبه ، من يابس ورخو وغير ذلك ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) . ثم ينفذ ما يكون من خبث وفضول إلى [أوعية]^(٢) وأعضاء أُعِدَّت لذلك كما ذكرنا قبل هذا ، فكونها كالأوعية لتحمل هذه الفضلات ، لكيلا تنتشر في البدن فتُسقمه .

ثم أنظر هل تجد في خلق البدن شيئاً لا معنى له ؟ هل خلق البصر إلا ليدرك الأشياء والألوان ؟ فلو كانت الألوان ولم يكن بصرٌ يدركها ، هل كان في الألوان منفعة ؟ ولو لم يكن لخلق الأبصار نور خارج عن نورها ما كان يُنتفع بالبصر . وهل خلق السمع إلا ليدرك الأصوات ؟ فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن في الأصوات منفعة ، وكذلك سائر الحواس .

١ - الآية ٦٤ / من سورة غافر .

٢ - في الاصل [منابض] ولم أجدما في المصباح المنير .

فكثّر في أشياء جعلت بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس إلا بها ، منها : الضياء والهواء ، فلو لم يكن ضياء تظهر فيه المبصرات لم يدر كها البصر ، ولو لم يكن هواء يوصل الصوت إلى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت .

فكثّر فيمن عُدِمَ البصر والسمع وما يناله من الخلل ، فإنه لا ينظر أين يضع قدمه ، ولا يدري ما بين يديه ، ولا يفرق ما بين الألوان ، ولا يدري بهجوم آفة أو عدو ، ولا سبيل له أن يتعلم أكثر الصناعات ؛ وأما من عُدِمَ السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ، ويمعِدُ لذة الأصوات المستحسنة ، والالحان المطربة ، وتعظيم المثنونة على من يخاطبه حتى ينصرم منه ، ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم ، حتى يصير كالغائب وهو شاهد ، وكالميت وهو حي ، وأما من عُدِمَ العقل فهو أشر من البهائم .

فانظر كيف صارت هذه الجوارح ، وهذه الأوصاف التي بها صلاح الانسان محصّلة ومبلّغة لجميع مآربه ، ومتمّمة لجميع مقاصده ، وإذا فقد شيئاً اختل أمره وعظم مصابه ، ومن بُلي بفقد شيء منها فهو تأديب وموعظة ، وتعريف بقدر نعمة الله في حقه وحق أمثاله ، وينال بصبره على ذلك حظاً في الآخرة . فانظر إلى رحمة الله كيف توجد في العطاء والمنع .

ثم فكثّر في الأعضاء التي خلقت أفراداً وأزواجاً ، وما في ذلك من الحكمة والصواب ، فالرأس مما خلق فرداً ، وإن كثيراً من الحواس قد حوتها رأس واحدة ، ولو زاد عليه شيء كان ثقيلاً لا يحتاج إليه ، فإن كان قسمين : فإن تكلم واحدهما بقي الآخر معطلاً لا حاجة إليه ،

وإن تكلم منهما جميعاً بكلام واحد كان أحدهما فضلة لا يحتاج إليها ، وإن تكلم من أحدهما بخلاف ما يتكلم به من الآخر لم يدر السامع مراده من ذلك ، وأما الذي يأخذ به السامع فهو ما كان واضحاً .

واليدان خلقتا أزواجاً ، ولو لم يكن للانسان خير في أن يكون يلم بيد واحدة ، لاختل ما يعالجه من الأمور ، فإنك ترى من سلّت إحدى يديه ما يكون عنده من النقص ، وإن يكلف بشيء لم يحكّمه ، ولا يبلغ فيه ما يبلغ صاحب اليدين ؛ وحكمة الرجلين ظاهرة .

فكثّر في تهيئة آلات الصوت ، فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت ، واللسان والشفّتان والأسنان لإصاغة الحروف . والفم ؟ ألا ترى أن من سقطت أسنانه أو أكثرها كيف يحصل الخلل في كلامه ؟ ثم انظر إلى ما في الحنجرة من المنفعة لسلوك النسيم منها إلى الرئة ، فتروح على الفؤاد بهذا النفس المتتابع . وما في اللسان من تغليب الطعام ، واعانته على تسويغ الطعام والشراب . وما في الأسنان من المعونة أيضاً ، ثم هي كالسند للشفّتين ، تمسكها وتدعها من داخل الفم ، وبالشفّتين يرتشف الشراب حتى يكون ما يدخله إلى الجوف بقصد ، وبقدر ما يخشاه الانسان . ثم هما على الفم كالباب .

فقد تبين لك أن كل عضو من هذه الأعضاء ينصرف إلى وجوه من المآرب ، وضروب من المصالح ، وإن زاد أفسد ، وإن نقص أفسد ، فذلك تقدير العزيز العليم .

فكثّر في الدماغ ، إذا كشف عنه فإنك تجده قد لفّ بعضه فوق بعض ، ليصونه من الأعراض ، وأطبقت عليه الجمجمة ، والشعر

ستر لها وجمال، ويبعد عنها ما يؤذيها من حر وبرد وغير ذلك، فحصى سبحانه وتعالى الدماغ هذا التحصين لعله بأنه مهم وأنه مستحق لذلك، لكونه ينبوع الحسن.

ثم انظر كيف غيَّب الفؤاد في جوف الصدر، وكساه المدرعة التي هي غشاؤه وأتقنها، وحصَّنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب لشرفه، وإن ذلك هو اللائق به. ثم انظر كيف جعل في الحلق منفذَيْن: أحدهما للصوت، وهو الحلقوم الواصل إلى الرئة، والآخر للغذاء وهو المريء الواصل إلى المعدة، وجعل على الحلقوم طبقاً^(١) يمنع الطعام أن يصل إليه. ثم جعل الرئة مروحة الفؤاد لا تُغيَّر ولا تُخلّ، تأخذ وترد بغير كلفة، لئلا تنحصر الحرارة في القلب فتؤدي إلى التلف، ثم ملأ الجو هواء هذه المصلحة وغيرها.

ثم انظر كيف جعل لمنافذ البول والغائط سراحاً يضبطها، لكي لا يجري جرياناً دائماً فيفسد على الإنسان عيشه؛ ثم انظر كيف جعل لحم الفخذين كثيراً كثيفاً، ليقى الإنسان من ألم الجلوس على الأرض، كما يألم من الجلوس من نحل جسمه وقل لعله إذا لم يكن بينه وبين الأرض حائل.

انظر لو كان ذكر الرجل مسترخياً أبداً، كيف يصل الماء إلى موضع الخلق، ولو كان مُنعظاً أبداً كيف يكون حاله في تصرفاته وهو كذلك؟ بل جعله مستوراً كأن لم تخلق له شهوة. ثم انظر أليس

١ - طبقاً أي لئلا على باب الحلقوم تمنع الماء والطعام من الوصول إلى مجرى التنفس.

أنه من حسن التدبير في البناء أن يكون الخلاء في أستر موضع في الدار؟ فلماذا اتَّخَذَ المنفذ المهيأ لقضاء حاجة الإنسان في أستر موضع من جسده، مغيب فيه، تلتقي عليه فخذاه بما عليها من اللحم فتواريه به، ويخفى ذكره، وذلك مخصوص بالإنسان لشرفه.

ثم انظر في خلق الشعر والأظفار لما كانا يطولان، وفي تقصيرهما مصلحة، جملاً عديمي الحسن حتى لا ينال الإنسان ألم عند التزيين بقصتها، ولولا هذه الحكمة لكان بين أمرين: إما أن يدعها على حالهما فيتشوه خلقه، أو يزيل ذلك فيتألم بإزالته؛ ثم تفكر في الشعور لو نبتت في العين لأعمت البصر، أو في الفم لتقتصت الأكل والشرب، أو في راحة الكف لتقتد لذة المس وبعض الأعمال، أو في الفرج لكدرت لذة الجماع، مع قبول هذه المواضع لنباتها فيها. فسبحات المدبِّر المنعم بهذه النعم.

فانظر كيف قصِدَ بهذا الخلق طريق الصواب وتجنب الخطأ والضرر، ثم فيما أُجبل عليه الإنسان من الاحتياج إلى المطعم والنوم والجماع، وما في ذلك من التدبير المحكم، فقد جعل في طبعه محركاً يقتضيه ويستحثه، فالجوع والعطش يقتضي طلب الطعام الذي به حياته، وكذلك الشراب الذي به قوامه، والنوم فيه راحة للبدن وعموم القوى، والشبق يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وبقاؤه. فلو كان الإنسان إنما يتناول الطعام والشراب لمعرفته بالحاجة إليه، ولم يجد من طباعه ما يلجئه إليه، لاشتغل بأسباب ضرورته، فتنحل قواه ويهلك، كما أنه قد يحتاج إلى دواء يكرهه وفيه صلاحه، وليس في جبلته داعية له فيندافع عن تناوله، فيمرض أو يموت. فكذلك

لو كان يفعل بالنوم ويدخله على جسمه باختياره ، لتشاغل عنه ببعض مهماته فيهلك جسمه بالتعب والنصب . وكذلك لو كان اقدامه على الجماع إنما هو لرغبة حصول الولد لانقطع النسل ، لما يعارضه من الأسباب المشغلة ، فانظر كيف جعل فيه بالطبع ما يضطره إلى حصول هذه الفوائد .

ثم انظر كيف رُتبت هذه القوى بهذا الترتيب الحكيم العجيب ، فصار البدن بما فيه بمنزلة دار الملك فيها حشم ، وقوم موكلون بالدار ، فواحد لإمضاء حوائج الحشم وإيراد ماء لهم ؛ وآخر لكسح ما في الدار من الأقدار وإخراجه . فالملك في هذا المثل هو الخالق العليم سبحانه ، والدار هي البدن ، والحشم هي الأعضاء ، والقوم في هذه القوى الأربع هي النفس ، وموقعها من الانسان بمعنى الفكر والوهم ، والعقل والحفظ ، والغضب وغير ذلك . أرأيت لو نقص من الانسان من هذه الصفات الحفظ وحده ؟ كيف يكون حاله ؟ وكان لا يحفظ حينئذ ماله وما عليه ، وما أصدر وما أورد ، وما أعطى وما أخذ ، وما رأى وما سمع ، وما قال وما قيل له ، ولم يذكر من أحسن إليه ولا من أساء له ، ولا من نفعه من ضره ، وكان لا يهتدي الطريق لو سلكه ، ولا لعلم ولو درسه ، ولا ينتفع بتحريره ، ولا يستطيع أن يعتبر بمن مضى .

فانظر إلى هذه النعم ، كيف موقع الواحدة منها ؟ فكيف جميعها ؟ وأعجب من نعمة الحفظ نعمة النسيان ، فلولا النسيان ماسلاً الانسان عن مصيبيته ، فكان لا ينقص له حسرة ، ولا يذهب عنه حقد ، ولا يستمتع بشيء من لذات الشهوات الدنيوية مع تذكر الآفات

والفجائع المفضيات ، وكان لا يمكن أن يتوقع غفلة من ظالم ، ولا فترة ولا ذهولاً من حاسد أو قاصد مضرة ، فانظر كيف جعل الله فيه سبحانه الحفظ والنسيان وهما متضادان ، وجعل للانسان في كل منها ضرورياً من المصالح .

ثم انظر إلى ما خصه به دون غيره من الحيوان من الحياء ، فلولا له لم تقبل العثرات ، ولم تقص الحاجات ، ولم يُقر الضيف ، ولم يثمر الجمل فيفعله ، ولا يتجافى عن القبح فيتركه ، حتى إن كثيراً من الأمور الواجبة إنما تفعل لسبب الحياء من الناس ، فترد الأمانات ، وتراعى حقوق الوالدين وغيرهما ، ويعف عن فعل الفواحش ، إلى غير ذلك من أجل الحياء ، فانظر ما أعظم موقع هذه النعمة في هذه الصفة .

وانظر ما أنعم الله به من النطق الذي يميز به عنه البهائم ، فيعبر بما في ضميره ، ويفهم عن غيره ما في نفسه . وكذلك نعمة الكتابة التي تقيد أخبار الماضين للباقيين ، وأخبار الباقيين للآتين ، وبها تخلد في الكتب العلوم والآداب ، ويعلم الناس ذكر ما يجري بينهم في الحساب والمعاملات ، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ، ودرست العلوم ، وضاعت الفضائل والآداب ، وعظم الخلل الداخل على الناس في أمرهم بسبب عدمها . فإن قلت : إن الكلام والكتابة مكتسبة للانسان ، وليست بأمر طبيعي ، ولذلك تختلف الخطوط بين عربي وهندي ورومي إلى غير ذلك ؛ وكذلك الكلام هو شيء تصطلح عليه فلذلك اختلف ؛ قلنا : ما به تحصل الكتابة من اليد والأصابع والكف المهيأ للكتابة ، والذهن والفكر الذي يهتدى به ليس بفعل الانسان ، ولولا ذلك لم يكن ليكتب أبداً ، فسبحان

المنعم عليه بذلك . وكذلك لولا اللسان والنطق الطبيعي فيه ، والذهن المركب فيه لم يكن ليتكلم أبداً ، فسبحان المنعم عليه بذلك .

ثم انظر إلى حكمة الغضب المخلوق فيه ، يدفع عن نفسه به ما يؤذيها ، وما خلق فيه من الحسد ، فيه يسعى في جلب ما ينتفع به ، غير أنه مأمور بالاعتدال في هذين الأمرين ^(١) ، فإن جاوز الحد فيها التحق برتبة الشياطين ، بل يجب أن يقتصر في حالة الغضب على دفع الضرر ، وفي الحسد على الغبطة ، وهي ارادة ما ينفعه من غير مضرة تلحق غيره .

ثم انظر ما أعطى وما منع ، مما فيه أيضاً صلاحه ، فمن ذلك الأمل ، فبسببه تعمر الدنيا ويدوم النسل ، ليرث الضعفاء عن الأقوياء منافع العمار ، فإن الانسان أول ما يخلق ضعيف ، فلولا أنه يجد آثار قوم أحلوا وعمره لم يكن له محل يأوي إليه ، ولا آلة ينتفع بها ، فكان الأمل سبباً لعمل الحاضرين ما يقع به انتفاع الآتين ، وهكذا يتوارث إلى يوم الدين .

ومنع الانسان من علمه أجله ومبلغ عمره لمصلحة ، فإنه

١ - أي مأمور بالاعتدال في الغضب والحسد ، أما الاعتدال في الغضب : فالمراد به ضبط النفس عند الغضب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (رواه البخاري) (الترغيب والترهيب للمندري ٥ / ١١٦ ؛ وأما الاعتدال في الحسد فالمراد به هنا الغبطة ، وهي تقي مثل ما ناله الغير أو كان عنده ، من غير أن تتمنى زواله عنه لما أعجبك منه وعظم عندك ، فهذا جائز وليس بمحسد ، فإن تمنيت زواله عن الغير وكرهته لغيرك ليكون لك فهو الحسد (المصباح المنير للقرني / ٤٢ ، ٦٣) .

لو علم مدة حياته وكانت قصيرة لم تنها حياته ، ولم ينشرح لوجود نسل ، ولا لعمارة أرض ، ولا لغير ذلك ، ولو علمها وكانت طويلة لانهمك في الشهوات وتعدى الحدود ، واقتحم المهلكات ، ولعجز الوعاظ عن إيقافه وزجره عما يؤدي إلى اتلافه ، فكان في جهله بمدة عمره حصول الخوف بتوقع هجوم الموت ، ومبادرة صالح الأعمال قبل الفوات .

ثم انظر إلى ما ينتفع به مما فيه مصالحه وملاذه من أصناف الأطعمة على اختلاف طعومها ، وأصناف الفواكه مع اختلاف أنواعها وبهجتها ، وأصناف المراكب ليركبها ويحصل منافعها ، وطيور يلتذّ بسماعها ، ونقود وجواهر يقتنيها ، ويصل بها إلى أغراضه ، ويحدها في مهاته ، وعقاقير يستعملها لحفظ صحته ، وبهائم لما كله ولغير ذلك من أموره من حرث وحمل وغير ذلك ، وأزهار وغيرها من العطريّات ينتعم بروائحها وينتفع بها ، وأصناف من الملابس على اختلاف أجناسها ، وكل ذلك ثمرة ما خلق فيه من العقل والفهم ، فانظر ماذا ركب الله فيه من العجائب .

ومن الحكمة البالغة اختلاف العباد في تملّك ما ينتفع به بنوا آدم ، ليميز منهم الفقير من الغني ، فيكون ذلك سبباً لعمارة هذه الدار ، ويشغل الناس بسبب ذلك عما يضرهم في غالب الأحوال ، فمثالهم فيما اشتغلوا به مثال الصبي ، فإنه يشتغل لنقص عقله فيما يضرّ به نفسه ، ولا يتفرغ فيكون فراغه وبالأعلى عليه .

وكم عسى أن يعمد العاد الحَكَم واللطائف التي يقصد بها قوام

العالم وعمارته إلى الأجل المعلوم ، وهي مما لا تدخل تحت حد ، ولا يحصرها عد ، ولا يعلم منتهى حقائقها ، واحصاء جملتها إلا الحكيم العليم ، الذي وسعت رحمته وعلمه كل شيء ، وأحصى كل شيء عدداً .

خاتمة لهذا الباب

في تكريم الانساف

إعلم أن الباري سبحانه وتعالى شرف هذا الآدمي ، وكرمه فقال سبحانه : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ * وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ * وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا »^(١) . فكان من أعظم ما شرفه به وكرمه العقل ، الذي تنبّه به على البهجة ، وألحقه بسببه بعالم الملائكة ، حتى تأهّل به لمعرفة باريّه ومبدّعه بالنظر في مخلوقاته ، واستدلاله على مخلوقاته ، واستدلاله على معرفة صفاته ، بما أودعه في نفسه من حكمة وأمانة ، قال الله العظيم : « وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفْكَالًا تَبْصُرُونَ »^(٢) ؟ فكان نظر الانسان في نفسه ، وفيما أودع الباري سبحانه فيه من العقل - الذي يقطع بوجوده فيه ، ويعجز عن وصفه - من أعظم الدلالات عنده على وجود باريّه ومدبره وخالقه ومصوره . فإنه ينظر في العقل

١ - الآية ٧٠ / من سورة الاسراء .

٢ - الآية ٢١ / من سورة الذاريات .

كيف فيه التدبير ، وفنون العلم ، ومستقر المعرفة ، وبصائر الحكمة ، والتمييز بين النفع والضرر ، وهو مع القطع بوجوده (أي العقل) لا يرى له شخصاً ، ولا يسمع له حساً ، ولا يحس له بحساً ، ولا يشم له ريحاً ، ولا يدرك له صورة ولا طعماً ، وهو مع ذلك أمر ومطاع ، وراج زيادة ، ومفكر ومشاهد للغيوب ، ومتوهم للأمور ، اتسع له ما ضاق عن الأبصار ، ووسع له ما ضاقت عنه الأوعية ، يؤمن بما غيبته حجب الله سبحانه مما بين سمواته وما فوقها ، وأرضه وما تحتها ، حتى كأنه يشاهده أبين من رأي العين ، فهو [أي العقل] موضع الحكمة ، ومعدن العلم ، كلما ازداد علماً ازداد سعة وقوة ، يأمر الجوارح بالتحرك ، فلا يكاد أن يميز بين الهم بالحركة ، وبين التحرك بسرعة الطاعة ، أيها أسبق وإن كان الهم قبل . وهو مع تدبيره وعلمه وحكمته عاجز عن معرفة نفسه ، إذ لا يمكنه أن يصف نفسه بصفة وهيئة أكثر من الاقرار بأنه 'مسلم' للذي وصفه ، العليم به ، ومقر بالجهل بنفسه ، وهو مع جهله بنفسه عالم حكيم ، يميز بين لطائف التدبير ، ويفرق بين دقائق الصنع ، وتجري الأمور وقد تدبرها ، ويتوهم العواقب وقد تمثلها ، ويدل على الأمور على اختلافها . فدلّ جهله بنفسه ، وعلمه بما يدبر ويميز أنه مركّب مصنوع ، مصوّر مقهور ، لأنه مع حكمته واتقاده بصيرته ، عاجز مهين ، يريد أن يذكر الشيء فينساه ، ويريد أن ينساه فيذكره ، ويريد أن يسرّ فيحزن ، ويريد أن يغفل فيذكر ، ويريد أن يتنبه ويتيقظ فيسهو ويغفل ، دلالة على أنه مغلوب مقهور ، جاهل بحقائق ما علم ، وهو مع ما دبر لا يدري كم مدى مبلغ صوته ، ولا كيف خروجه ، ولا كيف اتساق حروف كلامه ، ولا كم مدى مبلغ

نظرة ، ولا كيف رُكِّب نوره ، ولا كيف أدرك الأشخاص ، ولا كم قدر قوته ، ولا كيف تركبت ارادته ومهمته ؟ فاستدل بـ
- عن حقيقة ما علم - أنه مصنوع بصنعة متقنة ، وحكمة بالغة ،
تدل على الصانع الخالق ، المرید العلم عز وجل .

ثم إنه خلق في الانسان الهوى موافقاً لطباعه ، فإن استعمل نور العقل فيما أمر به ورَدَ مَوْرَدَ السلامة ، وفاز غداً بدار الكرامة ، وإن استعمله في اغراض نفسه وهواها حجب عن معرفة أمور لا يدركها غيره ، مع ما هو متوقع له في الدار الآخرة من الثواب والحجاب ^(١) والعقاب .

وهو [أي العقل] الآلة في عمل الصنائع ، وتقديرها على نحو ما قدرها ودبرها في ذهنه وتخيُّله ، واستنباط ما يستنبط بدقيق الفكر ، ومعرفة مكارم الأخلاق الموجودة في كل أمة وزمان ، واستحسان ما يحسن في عوائد العقلاء والفضلاء ، وتقبيح ما يقبح عندهم بحكم الاعتياد .

فانظر ما شرف الله به هذا الانسان ، أن خلق فيه ما يفيد هذه المعارف ، فإن الأواني تشرف بشرف ما يوضع فيها ، ولما كانت قلوب العباد هي محل للمعرفة بالله سبحانه شرفت بذلك . ولما سبق في علم الباري سبحانه و ارادته وحكمته ، بمصير الخلق إلى دار غير هذه الدار ، ولم يجعل في قوة عقولهم ما يطلعون به على أحكام تلك الدار ،

١ - وإليه الإشارة في قوله تعالى : « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » المطففون / ١٥ .

كتمل سبحانه هذا النور الذي وهبهم إياه [وهو نور العقل] بنور الرسالة إليهم ، فأرسل الأنبياء صلوات الله عليهم مبشرين لأهل طاعته ، ومنذرين لأهل معصيته ، فهدم بالوحي وهياهم لقبوله وتلقيه ، فكانت أنوار ما جاء بالوحي من عند الله ، بالنسبة إلى نور العقل ، كالشمس بالإضافة إلى نور النجم ، فدلوا العباد على مصالح دنياهم فيما لا تستقل بأدراكه عقولهم ، وارشدوهم إلى مصالح آخرهم ، التي لا سبيل للعباد أن يعرفوها إلا بواسطتهم ، وأظهر لهم سبحانه من الدلائل على صدق ما جاءوا به ما أوجب الازعان والانتقياد لصدق أخبارهم ، فتمت بذلك نعمة الله على عباده ، وظهرت كرامته ، وثبتت حجته عليهم .

فانظر ما أشرف الآدمي ونسله ، الذين ظهر منهم هؤلاء الفضلاء ، الذين هم قابلون لهذه الزيادات الفاضلة ، ثم تضافت أنوار الشرائع التي هي كالشمس ، وأنوار العقول التي هي كالنجم ، فتمت سعادة من سبق له من الله الحسنى ، وشقاوة من كذب ولم يُرد إلا الحياة الدنيا ^(١) .

ثم إن الله تبارك وتعالى من على الانسان بأن خصه برؤيا يراها في منامه ، أو في عينه كشبه المنام ، يمثل له فيها بأمثلة معهودة من جنس ما يعرفه ، وهي مبشرة أو منذرة له لما يتوقعه بين يديه ، وكل ذلك

١ - إقرأ ثم فكر في قوله تعالى : « فأعرض عن قولي عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبينهم من العلم . إن ربك هو أعلم بن ضل عن سبيله وهو أعلم بن اعتدي » النجم / ٢٩ - ٣٠ .

في حكمة خلق الطير

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ^(١) ﴾ وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ^(٢) ﴾ ما يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ * إنه بكل شيء بصير ^(٣) ﴿

إعلم رحمك الله : أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران ، ولم يخلق فيه ما يُثقله ، وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه . وصرف غذاءه ، فقسم لكل عضو ما يناسبه ، فإن كان رخواً أو يابساً أو بين ذلك انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به ، فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله ، وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه ، واسعة الأسفل لتثبت في

١ - الآية ٧٩ / من سورة النحل .

٢ - الآية ١٩ / من سورة الملك . [وهي زيادة من المحقق في متن الكتاب ليظهر للقاري تضافر الآيات في كتاب الله على لفت المقول الى هذا الخلق والتفكر فيه] .

مواهب وكرامات من جود الله سبحانه ، وجعل الله استقامته على الطاعة في قلبه وجوارحه سبباً لصدقها في غالب الأمر ، ليتعظ أو يقدم على الأمور أو يحجم عنها ، وهي الأمور التي انفرد الله بعلم العاقبة فيها ، وأطلع على بعض الأمور منها من شاء من عباده .



موطن على الأرض ، وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ، ليستغني عن الريش في الحر والبرد ، وكان من الحكمة خلقه على هذه الصنعة ، لأنه في رعيه وطلب قوته لا يستغني عن مواضع فيها الطين والماء ، فلو كسيت ساقاه بريش لتضرّر ببليّته وتلويثه ، فأغناه سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران ؛ وما خلّق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبتة طويلة لينال غذائه من غير حرج بها ، إذ لو طالت رجلاه ، وقصّر عنقه لم يمكنه الرعي لا في البراري ولا في البحار حتى ينكبّ على صدره ، وكثيراً ما يُعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق ، ليزداد مطلبه عليه سهولة ، ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه ، واختل رعيه .

وخلق صدره ودائرته ملفوفاً مربّباً على عظم كهيئة نصف دائرة ، حتى يخرق في الهواء بغير كلفة ، وكذلك رؤوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران . وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ، ويصلح لما يفتنّ به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك ، فمنه مخلّب للتقطيع خصّ به الكواسر وما قوته اللحم ، ومنه عريض مُشرّش ، جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً ، ومنه معتدل اللقط هو آكل الخضر ، ومنه طويل المنقار للحصر ؛ وجعله صلباً شديداً شبه العظم ، وفيه ليونة ما هي في العظم ، لكثرة الحاجة إلى استعماله ، وهو مقام الأسنان في غير الطير من الحيوان .

وقوّى سبحانه أصل الريش ، وجعله قصباً منسوجاً فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة لأجل كثرة الطيران ، ولأن حركة الطيران

قوية فهو محتاج إلى الاتقان لأصل الريش ، وجعل ريشه وقاية مما يضره من حرّ أو برد ، ومعونة متخللة الهواء للطيران ، وخص الأجنحة بأقوى الريش ، وأثبتته وأتقنه لكثرة دعاء الحاجة إليه . وجعل في سائر بدنه ريشاً غيره ، كسوة ووقاية وجمالاً له ، وثبّت أصل جميعه ، وجعل في ريشه من الحكمة أن البلل لا يفسده ، والأدران لا توسخه ، فإن أصابه ماء كان أيسر انتفاض يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته .

وجعل له منفذاً واحداً للولادة ، وخروج فضلاته لأجل خفته ، وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه ، فلولا له لمالت به الأجنحة في حال الطيران يميناً وشمالاً ، فكان له بمنزلة رجل السفينة الذي يعتدل بها سيرها . وخلق في طباعه الجذر وقاية لسلامته . ولما كان طعامه يتلعه بلعاً بلا مضغ جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ، ويقوم له مقام ما يقطع بالمدينة ، وصار يزدد ما يأكله صحيحاً . وأعين بفضل حرارة في جوفه تطحن الطعام طحناً يستغني به عن المضغ وثقل الأسنان ، واعتبر ذلك وغيره ، فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً وينسحق في أجواف الطير . ثم إنه خلقه ببيض ولا يلد لثلاث ثقل عن الطيران ، فانه لو خلّقت فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها وعوّق عن النهوض للطيران . أفلا ترى كيف دبّر الله كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة ؟

أنظر إلى من أنزله وألهمه الرقاد على بيضه فيحضنه مدة الحضانة . من ألهمه أن يلتقط الحب ؟ فإذا ماع في بطنه غدّي به أفراخه ،

وهذا نوع من الطير .

ثم انظر مع هذا كيف احتمل هذه المشقة وليست له روية ولا فكر في عاقبة ، ولا له أمل يأمله في أفراخه ، كما يأمل الإنسان في ولده من العزّ والرقد وبقاء الذكر ، فهل هذا إلا إلهام إلهي من فعل الله سبحانه ؟ انظر كيف ألهم معرفة حمل الأنثى منه بالبيض ، فألهم حينئذٍ حمل الحشيش وتوطئته في موضع التحضين والولادة ، لتقوم الرطوبة والتوطئة بحفظ البيض ، ويكون البيض محفوظاً في المهاد يهدونه ويستحسنونه في حال تحضينه .

انظر إلى الحمام كيف ألهم معرفة كمال الفرخ وانتهاء تحضينه للبيض ، حتى يكشف عن الفرخ ويخرجه . وإن اتفق في البيض فساد بسبب عرق قام وتركه .

ثم انظر إلهامه بما يزقّ به فرخه ، فإنه أولاً يزقّه بالريح لتستعد حوصلته لقبول ما يوضع فيها ، ثم بعد ذلك يزقّه من أول هضم ، ثم إذا ماع الغذاء في حوصلته يزقّه به ، ويفعل ذلك مراراً حتى يملي حوصلته ، فإنه لو أرسله إليه حباً صحيحاً لعجز عن هضمه لضعف جسده . فانظر إن كان هذا من فعل الطير وحكته . ثم انظر عند خروج الفرخ من البيضة كيف يسنده إلى جنبه لئلا يفقد الحرارة دفعة واحدة فيضر ذلك به .

ومن الطير مما يُخلَق على هيئة أخرى لحكمة أخرى ، ولتعلم أن قدرة الله لا تنحصر في نوع واحد ، بل كل حال له حكم يقوم بمصلحة ذلك الشيء . وذلك أن الدجاج ليس فيهم أهلية الزقّ ، بل جعلت

أفراخهم يلتقطون غذاءهم عند خروجهم من البيضة .

ثم انظر في الحمام الذكر والأنثى كيف يتداولان على التسخين خوف أن يفسد بيضهم ، فيعقب هذا صاحبه كأنه ألهم علماً بأن عدم هذا التدبير يفسد به بيضهم .

ثم انظر إلى خلق البيضة وما فيها من الحكيم الله ، ففيها المحّ (١) الأصفر الحار (٢) والماء الأبيض الرقيق ، فبعضه لينشأ منه جسده ، وبعضه يغتذي به إلى أن تنشق عنه ، وما في ذلك من التدبير المحكم العجيب ، وكيف جعل معه غذاءه في بيضة مغلقة تلتقي به إلى حين كاله فيها وخروجه منها .

ثم انظر في حوصلة الطائر ، وما في خلقها من التدبير ، فإن مسلك طعامه إلى القانصة (٣) ضيق ، لا ينفذ إليه إلا قليلاً قليلاً ، فلو كان لا يلتقط حبه حتى تصل الأولى إلى القانصة لطال الأمر عليه ، مع ما فيه من شدة الحذر وتجنبه ما يؤذيه ، فصار ما يحتكره احتراساً لشدة حذره ، فجعلت له الحوصلة كالحلقة المعلقة أمامه ، ليودع فيها ما ادرك من الطعام بسرعة ، ثم ينفذه إلى القانصة على مهل . وفيها حكمة أخرى ، فإن الطير الذي يزقّ أفراخه يكون رده الطعام من قرب [أي من الحويصلة] أسهل عليه .

١ - المح . صفرة البيض (البستان معجم لغوي لعبد الله البستاني / ٢٢٣٤) .

٢ - الحبر : بفتح الحاء والباء ، صفرة تصيب الاسنان وهو مصدر حبرت الاسنان ،

والحار شديد الصفار (المصباح المنير للعقري / ٥٥) .

٣ - الحبوب التي يتناولها الطير تدخل أولاً إلى الحوصلة وتجتمع فيها ثم تتسرب

إلى القانصة على مهل تمهيداً لهضمها .

ثم تأمل ريش الطائر ، فإنك تجده منسوجاً نسج الثوب من سلوك رفاق ، فيها من اليبس ما يمسك حولها ، ومن اللين ما لا ينكسر معه [عودها] وهي خاوية ، وقد تألف بعضها إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط ، والشعر إلى الشعر . ثم تجده إذا فتحته - أعني نسج الريش - يفتح قليلاً ، ولا ينشق لتدخله الريح فتثقله عن طيرانه ، وتجد في وسط الريشة عموداً غليظاً يابساً مثبتاً ، قد نسج عليه كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته ، فلو عدم ذلك وعرضت الريشة دونه لفسخها ما يقابلها من الهواء ، وهو - أي عمود الريشة - مجوف ليخف على الطير طيرانه .

انظر إلى الطائر الطويل الساقين ، والحكمة في طولها أنه يرعى أكثر رعيه في صحاح كأنه فوقه مراقب ، يتأمل ما يدب في الماء ، فإذا رأى شيئاً من حاجة خطأ خطأ رفيقاً حتى يتناولوه ، فلو كان قصير الساقين لكان حين يخطو إلى الصيد يصل بطنه إلى الماء فيهزّه فيذعر منه الصيد فيبعد عنه .

انظر إلى العصافير وغيرها ، فإنها لا تطلب رزقها في طول نهارها ، فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعاً محلّه ، وهو أمرٌ جارٍ على سنة الله في خلقه ، فإن صلاحهم في السعي في طلب الرزق . فإن الطير لو وجده ميسراً لأكبّ عليه ، ولا يقلع عنه حتى يمتلئ فيثقل عن الطيران ولا يستطيع رده ، أعني قذفه من بطنه ، مثل طير الماء الكبير ، فإنه يأكل السمك ، فإذا امتلأ منه وأزعجه ثقباه حتى يخف للطيران ، وكذلك الناس أيضاً ، لو وجدوه بلا سعي لتفرغوا فراغاً يوقمهم في غاية الفساد .

انظر إلى هذه الأصناف من الطير ، التي لا تخرج إلا ليلاً ، مثل البوم والهام والحفاش ، فإن عيشها يتيسر في الجو ، بالبعوض والفراش وشبهه ، فإنها مُنبِثَةٌ في هذا الجو ، فجعل عيشه في موضع أقرب إليه من الأرض ، ولعل النور لا يعينه أن يلتقط من الأرض ، بدليل أنه لا يظهر في نور الشمس إلا مختفياً ، فألهم أن يعيش في الجو من الفراش وغيره .

انظر إلى الحفّاش ، لما خلق بغير ريش كيف خلق له ما يقوم مقامه ، وجعل له فم وأسنان وكل ما في البهائم الأرضية من الولادة وغيرها ، وأقدره على الطيران ، فأظهر سبحانه أن قدرته على الطيران لا تقتصر على ما خلق له من الريش ، ولا ينحصر ذلك في نوع واحد ، لأنه خلق [من الطير] هذا النوع ، وخلق من السمك جنساً يطير على البحر مسافة طويلة ثم ينزل الماء ، فسبحان القاضي العليم .

انظر إلى الذكر والأنثى من الحمام كيف يتعاونان على الحضانة ، فإذا احتاج أحدهما إلى قوته ناب الآخر ، إلى وقت الحضانة ، ثم ألهمها الحرص على الحضانة ، فلا يطيلان الغيبة على البيض إذا خرجا لنيل القوت ، حتى أنهما يجتمع في أجوافها البراز للحرص على الرقاد ، فإذا اضطر لخروج البراز أخرجه دفعة واحدة .

ثم انظر إلى حرص الذكر حين تحمل الأنثى بالبيض ويقرب أوان وضعها ، كيف يطردها وينقرها ، ولا يدعها تستقرّ خارجاً عن الوكر خشية أن تضع البيض في غير الموضع المهيأ لوضعه . انظر كيف يزقّ أفراده ويعطف عليها ما دامت محتاجة إلى الزق ، حتى إذا كبرت واشتدت ، ولقطت واستغنت عن أبويها ، صارت إذا تعرضت له

في حكمة خلق البهائم

قال الله تعالى ﴿والانعام خلقها﴾ لكم فيها دفءٌ ومنافع ومنها
تأكلون ﴿ولم فيها جمالٌ حين تريحون﴾ وحين تسرحون ﴿
وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالفيه إلا بشقِّ الأنفس﴾ إن
ربكم لرموفٌ رحيم ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾
ويخلق ما لا تعلمون ^(١)

اعلم وفقك الله وإيانا : أن الله خلق البهائم لمنافع العباد ، وامتناناً
عليهم ، كما نبهت على ذلك هذه الآية ، فخلقها الله بلحم مشيت على عظام
صلبة تمسكه ، وعصب شديد وعروق شداد ، وضم بعضها إلى بعض ،
ولم يجعلها رخوة ولا صلبة كصلابة الحجارة ، وجعل لذلك تجلداً اشتمل
على ابدانها كلها ليضبطها ويتقنها ، لأنه أريد منها القوة للعمل والحمل ؛
ثم خلقها سبحانه سميعه بصيرة ليلبغ الانسان حاجته ، لأنها لو كانت
عمياء صماء لم ينتفع بها الانسان ، ولا وصل بها إلى شيء من مآربه .

لنيل ما اعتادت عليه - من الزق - ضربها وضربها عن نفسه
واشتغل بغيرها .

ثم انظر إلى ما خلق الله تعالى في الكواسر من شدة الطيران حتى
لا يسبق لما يطلبه ، ومن قوة المخلب وحيدته في المنقار والأظفار ،
فكان مخلبها مدية للقطع ، وكان مخلب أرجلها خطاطيف يعلق فيها
اللحم حتى تحصل ما تحتاجه من قوتها .

ثم انظر إلى طير الماء ، لما جعل قوته في الماء كيف جعل فيه قوة
السباحة والغطس ، ليأخذ من جوف الماء رزقه ، فجعل سبحانه
وتعالى لكل صنف من الطيور ما يليق به في تحصيل قوته .



ثم مُنِعَتِ العقل والذهن حكمة من الله لتذلل للإنسان ، فلا تمتنع عليه إذا أكدّها عند حاجته إلى إكدادها في الطحن وحمل الاثقال ، إلى غير ذلك . وقد علم الله أن بالناس حاجة إلى أعمالها ، وهم لا يطيقون أعمالها ولا يقدرّون عليها . ولو كلف العباد القيام بأعمالها لأجهدهم ذلك واستفرغ قواهم ، فلا يبقى فيهم فضيلة لعمل شيء من الصناعات والمهن التي يُخصّصون بعملها وخلقتهم قابلة لها ولا غنى لهم عنها ، ولا لتحصيل الفضائل من العلوم والآداب ، ولكان ذلك مع اتعابه لأبد أنهم يضيّق عليهم معاشهم ، فكان قضاؤه على هذا وتسخيرها لهم من النعم العظيمة .

انظر في خلق أصناف من الحيوان ، وتهيئتها لما فيه صلاح كل صنف منها : فبنو آدم لما قدّروا أن يكونوا ذوي علاج للصناعات ، واكتساب العلوم وسائر الفضائل ، ولا غنى لهم عن البناء والحياكة والتجارة وغير ذلك ، خلقت لهم العقول والادهان والفكر ، وخلق لهم الأكف ذوات الأصابع ، ليتمكنوا من القبض على الأشياء ، ومحاولات الصناعات . وآكلات اللحم لما قدّروا أن يكون عيشها من الصيد ولا تصلح لغيره خلقت لها مخالب وسرعة نهضة وأنياب . وآكلات النبات لما قدّروا أن تكون غير ذات صنعة ولا صيد خلقت لبعضها أظلاف كفتها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى ، وللبعضها حوافر مستديرة ذات مقر كأخص القدمين ، لتنطبق على الأرض وتنتهي للحمل والركوب .

تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان ، كيف خلقت ذوات أسنان حداد ، وقراس شداد ، وأفواه واسعة ، وأعينت

بسلاح وأدوات تنال بذلك ما تطلبه ، فإن ذلك كله صالح للصيد . فلو كانت البهائم التي عيشها النبات ذوات مخالب وأنياب ، كانت أعطيت ما لا تحتاج إليه ، لأنها لا تصطاد ولا تأكل اللحم . ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه من السلاح الذي به تصطاد . فانظر كيف أعطى سبحانه كل واحد من أصناف الحيوان ما يشا كله وما فيه صلاحه وحياته .

انظر إلى أولاد ذوات الأربع كيف تجدها تتبع الأمهات مستقلة بنفسها لا تحتاج إلى تربية وحمل كما يحتاج آدميون ، إذ لم يجعل في أمهاتها ما جعل في أمهات البشر من العقل والعلم ، والرفق في أحوال التربية ، والقوة عليها بالفكر ، والأكف والأصابع المهيأة لذلك ولغيره ، فلذلك أعطيت النهوض والاستقلال بأنفسها . ولذلك ترى فراخ بعض الطير مثل الدجاج والدراج يدرج ويلتقط عقيب خروجه من البيضة ، وما كان منها ضعيفاً لا نهوض له مثل فراخ الحمام والياف جعل في الأمهات عطفاً عليها ، فصارت تعين الطعام في حواصلها ، ثم تمجّه في أفواه أفرأخها ، ولا تزال كذلك حتى تنهض [أفرأخها] وتستقل ، فكلُّ أعطى من اللطف والحكمة بقسط ، فسبحان المدربر الحكيم .

انظر إلى قوائم الحيوان كيف تنتقل أزواجاً لتتبع المشي ، فلو كانت أفراداً لم تصلح لذلك ، لأن المائي منها ، ينقل منها بعضه ، ويعينه على مشيه اعتماده على ما لم ينقله منها ، وذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى ، وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين ، وذلك من خلاف ، لأنه لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه ويعتمد

على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كالسريز، ولو كان يرفع يديه ويتبعها برجليه لفسد مشيه، فجعل ينقل اليمنى من مقدمه على اليسرى من مؤخره، ويعتمد الآخرين من خلاف أيضاً، فتثبت على الأرض ولا تسقط إذا مشى، لسرعة التحاقهما فيما بين المشي والاعتماد.

أما ترى المحار يذل للحمولة والطحن، والفرس مُردع عنها؟ والبعير لا تطيقه عدة رجال لو استعصى، وينقاد لصبي صغير؟ والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ليستحرضه؟ والفرس تركب ويحمل عليها السيوف والأسنة في الحروب وقاية لراكبها؟ والقطيع من الغنم يرعاهما صبي واحد؟ فلو تفرقت فأخذت كل شاة منها جهة - لنفورها - لتعذرت رعايتها، وربما اعجزت طالبها. وكذلك جميع الحيوان المسخر للإنسان، وما ذلك إلا لأنها عذمت العقل والتروي، فكان ذلك سبباً لتذليلها، فلم تلتو على أحد من الناس وإن أكدتها في كثير من الأحوال. وكذلك السباع لو كانت ذوات عقل وروية، لتواردت على الناس وانكتهم نكاية شديدة عظيمة، ولعسر زجرها ودفعها، ولا سيما إذا اشتدت حاجتها في طلب قوتها واشتد خللها. ألا ترى إذا أجمعت عن الخلق، وصارت في أماكنها خائفة تهاب مساكن الناس وتحجم عنها، حتى صارت لا تظهر ولا تنبثق في طلب قوتها في غالب أحوالها إلا ليلاً، فجعلها منع شدة قوتها وعظم غذائها كالحائفة من الأنس، بل هي ممنوعة منهم، ولولا ذلك لساورتهم في منازلهم وضيق عليهم مساكنهم.

ألا ترى الكلب - وهو من بعض السباع - كيف سُخر في حراسة

منزل صاحبه؟ حتى صار يذلل نفسه ويترك نومه حتى لا يصل إلى صاحبه ما يؤذيه؟ ثم إنه أعان صاحبه بقوة صوته حتى يتنبه من نومه فيدفع عن نفسه، ويألفه حتى يصبر معه على الجوع والعطش، والهوان والجفاء؟ فطبع على هذه الخلال لمنفعة الإنسان في الحراسة والاصطياد؛ ولما جعله الباري سبحانه حارساً أمدته بسلاح، وهو الأنياب والأظفار. والله القوي لينذر به السارق والمريب، ويحجب المواضع التي يحميها.

ثم انظر كيف جعل ظهر الدابة سطحاً مشبّكاً على قوائم أربع، لتمهيد الركوب والحمل، وجعل فرجها بارزاً من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها، إذ لو كان أسفل بطنها كالآدمي لم يتمكن الفحل منها؛ ألا ترى أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحاً كما يأتي الرجل امرأته؟ فتأمل هذه الحكمة والتدبير. ولما كان فرج الفيلة تحت بطنها، فإذا كان وقت الضراب ارتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من إتيانها، فلما لم يخلق في الموضع المخلوق في الانعام والبهائم خلقت فيه هذه الصفة، ليقوم الأمر الذي به دوام التناسل، وذلك من عظيم العبر.

ثم انظر كيف كُسيّت أجساد البهائم الشعر والوبر، ليقبها ذلك الحر والبرد وغيره من الآفات، وحملت قوائمها على الأظلاف والحوافر ليقبها ذلك من الحفا، وما كان منها بغير ذلك جعلت له أخفاف تقوم مقام الحافر في غيره.

ولما كانت البهائم لا أذنان لها ولا أكف، ولا أصابع تهبها للأعمال، كُفيت مثنوة ما يضر بها، بأن جعلت كسوتها في خلقها باقية عليها ما بقيت فلا تحتاج إلى استبدال بها، ولا تجديد بغيرها،

بخلاف الآدمي، فإنه ذوقهم وتدبير، وأعضاء مهيأة لأعمال ما يقترحه، وله في إشغاله بذلك صلاح، وفيه حكمة، فإنه خلق على قابلية لفعل الخير والشر، وهو إلى فعل الشر أميل منه إلى فعل الخير، فجعلت له الأسباب التي يحصل بها ما هو محتاج إليه، ليستغل بها عما فيه فسادة وهلاك دينه، فإنه لو أعطى الكفاية في كل أحواله أهلكه الأشر^(١) والبطر، وكان من أعظم الحيوانات فساداً في الأرض، ولتصرف بعقله الذي هو مخلوق ينال به السعادة، إلى ما فيه شقاوته.

ثم إن الآدمي مكرّم^(٢)، يتخير من ضروب الملابس ما شاء، فيلبس منها ما شاء، ويخلع منها ما شاء، ويتزين بها، ويتجمل ويتلذذ منها بما يشاء، ويكمل بها زينته وجماله وبهاءه في عين من يصحبه ويحب قربه، ويطيب بذلك رائحته وينعش نفسه، وهذا من باب النعمة عليه والكرامة له، بخلاف البهائم، فإنها غنية عن ذلك كله.

أنظر فيما ألهم الله البهائم والوحوش في البراري، فإنها توارى أنفسها كما يوارى الناس موتاهم، فما أحس منها بالموت توارى بنفسه إلى موضع يحتجب فيه حتى يموت، وإلا فأين جثث السباع والوحوش وغيرها؟ فإنك لو طلبت منها شيئاً لم تجده، وليست قليلة، فيخفى أمرها لقلتها؛ بل لو قال قائل: إنها أكثر من الأنس لم يبعد، لأن

١ - الأشر: بفتح الشين، البطر وكفر النعمة فلم يشكرها (المصباح المنير للمقري ٩/٢).

٢ - وقد قال الله في معرض تكريمه لبني آدم: «ولقد كرّمنا بني آدم، وجلّناهم في البر والبحر. ورزقناهم من الطيبات. وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً» الآية ٧٠ / من سورة الإسراء.

الصحاري قد امتلأت من سباع وضباع. وبقر وحمير، ووعل وإبل، وخنزير وذئب، وضروب من الهوام والحشرات، وأصناف من الطير، وغير ذلك مما لا يحصى عدده، وهذه الأصناف في كل يوم يخلق منها ويموت منها. ولا يرى لها رمم^(١) موجودة. والذي أجرى الله به عاداتها أن تكون في أماكنها، فإذا أحسّت بالموت أتت إلى مواضع خفية فتموت فيها. فانظر هذا الأمر الذي ألهمت له هذه الأصناف في دفن جثثها بما فطرت عليه، وشخص لبني آدم بالفكر والتروّي.

تأمل الدواب كيف خلق أعينها شاخصة أمامها؟ لتنظر ما بين يديها فلا تصدم حائطاً ولا تتردى في حفرة، وإذا قربت من ذلك نفرت منه وأبعدت نفسها عنه، وهي جاهلة بعاقبة ما يلحقها منه. اليس الذي جعلها على ذلك أراد صلاحها وسلامتها ليستنقح بها؟

ثم انظر إلى فيها مشقوقاً إلى أسفل الخطم^(٢) لتتمكن من نيل العلف والرعي، ولو جعل كهم الإنسان لم تستطع أن تتناول شيئاً من الأرض، وأعينت بالحفلة لتقضم بها ما قرب منها، فألهمت قضم ما فيه صلاحها، وترك ما لا غذاء لها فيه ولا صلاح.

أنظر ما كان من البهائم كيف يمز الماء في شربه مزاً، وكيف خلقت فيه شعرات حول فمه، يدفع بها في شربه ما كان على وجه الماء من القذى والحشيش، ويحركها تحريكاً يدفع به الكدر عن الماء حتى

١ - الرمم: بضم الراء وفتح الميم، مفرداً رمة، والرمة العظام البالية وتجمع على رمم (المصباح المنير للمقري ١/١١٠).

٢ - الخطم: من كل طائر منقاره، ومن كل دابة مقدم الانف والفم (المصباح المنير للمقري ١/٨٠).

يشرب صفوه ، فتقوم لها هذه الشعرات مقام فم الأسنان .

ثم انظر إلى ذنب البهيمة وحكمته ، وكيف خلق كأنه غطاء في طرفه شعر ، فمن منافعه أنه بمنزلة الغطاء على فرجها ودبرها ليسترها ، ومنها أن ما بين دبرها وطرق بطنها أبداً يكون فيه وصراً يجتمع بسبه الذباب والبعوض ، ويجتمع أيضاً على مؤخرها ، فأعينت على دفع ذلك بتحريك ذنبها ، فصار كأنه مديبه في يدها تذب وتطرد عنها ما يضر بها ، ثم إنها تعطف برأسها فتطرد به ما في مقدمها من الذباب أيضاً . ثم إن الدابة أيضاً أعينت بحركة مختصة ، وذلك أن الذباب إذا وقع عليها في مواضع بعيدة من رأسها وذنبها حركت ذلك الموضع من جلدها تحريكاً تطرد به الذباب وغيره عنها ، وذلك من عجيب الحكمة فيما لا ينتفع بيدين . ومن الحكمة فيه أيضاً أن الدابة تستريح بتحريكه بُعْدَةً وَيُسْرَةً ، لأنها لما كان قيامها على أربع اشتغلت يداها أيضاً بالحمل لبندنها ، فجعل لها في تحريك ذنبها منفعة وراحة ، وأعينت بسرعة حركته حتى لا يطول ألمها بما يعرض لها . ومن الحكمة فيه أن البهيمة إذا وقعت في بركة أو مهواة ، أو وَجَلَّتْ في طين أو غيره ، فلا تجد شيئاً أهون على نهوضها وخلصها منه من الرفع بذنبها ، ومن ذلك إذا خيف على حملها أن ينقلب على رقبته عند هبوطها من مكان مصبوب ، أو أن يسبقها رأسها فتتكب على وجهها ، فيكون مسكها بذنبها في هذه المواضع يعدلها ويعينها على اعتدال سيرها وسلامتها مما خيف منه عليها ، إلى غير ذلك من مصالح لا يعلمها إلا الحكيم العليم .

انظر إلى مشفر الفيل وما فيه من الحكمة والتدبير ، فإنه يقوم مقام اليدين في تناول العلف وإيصاله إلى فمه ، فلو لا ذلك ما استطاع

أن يتناول شيئاً في الأرض ، إذ لم يجعل له عنق كسائر الأنعام ، فلما عدم العنق في هذا الخلق جعل له هذا الخرطوم يده فيتناول به ما يحتاجه ، فسبحان اللطيف الخبير . انظر كيف جعل هذا الخرطوم وعاء يحمل فيه الماء إلى فمه ، ومنخرأ يتنفس منه ، وآلة يحمل بها ما أراد على ظهره ، ويناول من هو راكب عليه .

انظر إلى خلق الزرافة ، لما كان منشؤماً في رياض شاهقة ، خلق لها عنقاً طويلاً لتدرك قوتها من تلك الأشجار .

تأمل في خلق الثعلب ، فإنه إذا حفر له بيتاً في الأرض جعل له فوهتين : إحداها ينصرف منها ، والاخرى يهرب منها إن طُلب ، ويرفق^(١) مواضع في الأرض من بيته ، فإن طلب من المواضع المفتوحة ضرب برأسه في المواضع التي رفقها ، فخرج من حيز المنافذ ، وهي المواضع التي تحتها ، فانظر ما خلق الله تبارك وتعالى في جبلته لصيانة نفسه .

وجملة القول في الحيوان : أن الله تبارك وتعالى خلقه مختلف الطباع والخلق ، فما كان منه ينتفع الناس بأكله خلق منه الانقياد والتذلل ، وجعل قوته النبات . وما جعل منه للحمل جعله هادئ الطبع ، قليل الغضب ، منقاداً ومفصلاً على صور يتهاى منه الحمل . وما كان منه ذا غضب وشر إلا أنه قابل للتنظيم إذا نُظم خلق فيه

١ - المرفق : هو ما ارتفعت به وانتفعت به ، والمراد هنا أنه يشق طرقاً في الأرض من بيته ليتنفع بها ويهرب من أحدها إذا دهم من الآخر (البستان معجم لغوي لعبد الله البستاني / ٩٢٢) .

في حكمة خلق النحل ،
والنمل ، والعنكبوت ،
ودود القز ، والذباب ،
وغير ذلك .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ * وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ * إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ * مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ * ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (١) .

أنظر إلى « النمل » وما ألهمت له في احتشادها في جمع قوتها وتعاونها على ذلك ، وإعدادها لوقت عجزها عن الخروج ، والتصرف بسبب حر أو برد . وألهمت في تقلب ذلك من الحزم ما لم يكن عند من يعرف العواقب ، حتى تراها في ذلك إذا عجز بعضها عن حمل ما حمله ، أو جهد به ، أعانه آخر منه ، فصارت متعاونة على النقل كما يتعاون الناس على العمل الذي لا يتم إلا بالتعاون ، ثم إنها ألهمت حفر بيوت في الأرض ، تبتدىء في ذلك باخراج ترابها ، وتقصد إلى الحب الذي فيه قوتها ، فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض ، فما خلق

هذا القبول للتعليم ، ليستعين العباد بصيده وحراسته ، وأعين بالأت قد تقدم ذكرها . ومن جملة ذلك الفيل ، فإنه ذو فهم مخصوص به ، وهو قابل للتأنس والتعليم ، فيستعان به في الحمل والحروب . ومنها لها له غضب وشر إلا أنه متأنس بالإنسان لمنفعته كالهرة . ومن الطير ما للناس به انتفاع لما فيه من اللفة والتأنس ، فمن ذلك الحمام يألف موضعه ، فسهل بسببه الإخبار بسرعة إذا دعت حاجة إلى ذلك ، وجعله الله سبحانه وتعالى كثير النسل فيكون منه طعام ينتفع به ؛ ومن ذلك البازي فإن طباعه تنتقل إلى التأنس ، وإن كان في طبعه مبايناً ، إلا أنه لما علم الله أنه ينتفع بصيده جعل فيه القبول للتنظيم ، حتى خرج عن عادته وبقي يعمل ما يوافق أصحابه وقت الصيد ، وما خفي من الحكيم في خلق الله تعالى أكثر مما علم .



هذا في جبلتها إلا الرحمن الرحيم ، ثم إذا أصاب الحب بلل أخرجه
فنشرته حتى يجف ، ثم إنها لا تتخذ البيوت إلا فيما علا من الأرض
خوفاً من السيل أن يغرقها .

ثم انظر إلى « النحل » وما ألهمت إليه من العجائب والحكم ، فإن
الباري سبحانه جعل لها رئيساً تتبعه وتهتدي به فيما تناله من أقواتها ،
فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل أحدهما
الآخر ، وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الافتراق ، لأنها إذا كانا
أميرين وسلك كل منهما فجراً افترق النحل خلفها . ثم إنها ألهمت أن
ترعى رطوبات من على الأزهار ، فيستحيل في أجوافها عسلاً ، فعلم من
هذا التسخير ما فيه من مصالح العباد من شراب فيه شفاء للناس كما أخبر
سبحانه وتعالى ^(١) ، وفيه غذاء وملاذ للعباد ، وفيه من أقوات فضلات
عظيمة جعلت لمنافع بني آدم ، فهي مثل ما يفضل من اللبن الذي خلق
لمصالح أولاد البهائم وأقواتها ، وما فضل من ذلك ففيه من البركة
والكثرة ما ينتفع به الناس .

ثم انظر إلى ما تحمله النحل من الشمع في أرجلها لتوعي فيه العسل
وتحفظه ، فلا تكاد تجد وعاءً أحفظ للعسل من الشمع في الأجناح .
فانظر في هذه الذبابة ، هل في علمها وقدرتها جمع الشمع مع العسل؟ أو
عندها من المعرفة مثل ما للنحل بحيث ترتب حفظ العسل مدة طويلة باستقراره

١ - وذلك في قوله تعالى: « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً
ومن الشجر وما يمرشون . ثم كلي من كل الثمرات . فاسلكي سبل ربك
ذلاً . يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن في ذلك
لآية لقوم يتفكرون » الآيتان ٦٨ و ٦٩ / من سورة النحل .

في الشمع ، وصيانتها في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد
فيها . ثم انظر لخروج النحلة نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها ،
وقد حلت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ، ولها في ترتيب بيوتها ، ومن
الحكمة في بنائها ، حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ، ولها جهة
أخرى تجعل فيها برازها مباعداً عن مواضع العسل ، وفيها غير هذا
ما انفرد الله بعلمه .

انظر إلى « العنكبوت » وما خلق الله فيها من الحكمة ، فإن الله
خلق في جسدها رطوبة تنسج منها بيتاً لتسكنه ، وشركاً لصيدها ،
فهو مخلوق من جسدها ، وجعل الله غذاءها من أقواتها ، ينصرف إلى
تقويم جسدها ، وإلى خلق تلك الرطوبة المذكورة ، فتنصبه أبداً مثل
الشرك ، وفي ركن الشرك بيتها ، وتكون سعة بيتها بحيث يغيب
شخصها ، والشرك من خيوط رقاق تلتف على أرجل الذباب والناموس
وما أشبه ذلك ، فإذا أحست أن شيئاً من ذلك وقع في شركها خرجت
إليه بسرعة ، وأخذته محتاطة عليه ، ورجعت إلى بيتها فتقتات بما
يتيسر لها من رطوبة تلك الحيوانات ؛ وإن كانت مستغنية في ذلك
الوقت شكلته وتركتها إلى وقت حاجتها . فانظر ما جعل الله فيها
من الأسباب لحصول قوتها ، فبلغت في ذلك ما يبلغه الإنسان بالفكرة
والحيلة ، كل ذلك لصلاحها ونيل قوتها ، ولتعلم أن الله هو
المدير لهذا .

ثم انظر من العجائب « دود القز » وما خلق فيه من الأشياء
التي يتحير منها ، ويذكر الله عند رؤيتها ، فإن هذا الدود خلق لمجرد
مصلحة الإنسان ومنافعه ، فإن هذا الحيوان يخلق من جسمه الحرير ،

وذلك أن صورة البذر تحضن، حتى إذا احمى عاد دوداً كالذر، فيوضع هذا الدود على ورق التوت فيتغذى منه، فلا يزال يرعى منه حتى يكتمل جسمه فينبعث إلى عزل نفسه في جوز الحرير، فلا يزال كذلك حتى يفنى جسمه ويعود في جوزة الحرير، ويصير جسماً ميتاً لا حياة فيه.

ثم انظر فإن الباري سبحانه لما أراد حفظ هذا الجنس بقاء نسله [رتب تطوره على أمر عجيب]^(١) فعند ما ينتهي من غزل الحرير ويعفى ذلك الجسم يقلبه الله إلى صورة طائر صغير قريب من صورة النحل [أو الفراشة] ؛ فيجمع على بساط أو غيره، وهو في رأي العين جنس واحد لا يتميز منه الذكر من الأنثى، فيعلو الذكر منه على ظهر الأنثى، ويقيم لحظة على ظهرها فتجبل لوقتها وتلد لوقتها مثل ذلك البذر الذي حضن أولاً، ثم يطير فيذهب فلا يبقى بها انتفاع، إذ قد حصل منها المقصود وهو ذلك البذر، فانظر من ألهما الرعي من ذلك الورق حتى تغتذي منه؟ ومن ألهمها إلى غزل أجسادها حريراً حتى يفنى جسمها فيما غزلته؟ ومن ربي لها أجنحة؟ وقلب صورتها حتى صارت على هيئة يمكن فيها اجتماع الذكر والأنثى لتناسلها؟ ولو بقيت على صورتها الأولى لم يأت منها تناسل ولا هذا الاجتماع.

ثم انظر ما يسره الباري سبحانه من عمل ما غزلته هذه الدودة على من يعملها من بني آدم، حتى يكون منه أموال كثيرة، وملابس عظيمة وزينة. وانظر هذا التسخير العجيب في هذا الحيوان اللطيف،

وما أظهر فيه سبحانه من بارع الصنع وعجيب العقل، وعظيم الاعتبار، وما جعل فيه من البرهان والآيات على بعث الأموات وإعادة العظام للرفات، سبحانه لا إله إلا هو العلي العظيم.

ثم انظر إلى « الذبابة » وما أعينت به لنيل قوتها، فإنها خلقت بأجنحة تسرع بها إلى موضع تنال فيه قوتها، وتهرب بها عما يهلكها ويضر بها، وخلق لها ستة أرجل، تعتمد على أربع، وتفضل منها اثنتين، فإن أصابها عثار مسحته بالرجلين اللتين تليهما، وذلك لرقعة أجنحتها، ولأن عينها لم يخلق لها أهداب، لأنها بارزتان عن رأسها. وجعل هذا الحيوان وما جرى مجراه مما يتعلق ببني آدم ويقع عليهم دائماً، ويُنفص عليهم عيشهم، ليعرفهم الباري سبحانه هوان الدنيا، حتى تصغر عندهم ويهون أمر فراقها، وهو وجه من وجوه الحكمة لهم.

تأمل كثيراً من الحيوان الصغير عندما تلمسه يعود كأنه جماد لا حراك به، ويبقى على ذلك ساعة، ثم يتحرك ويمشي، وهل ذلك إلا لأن ما يصطاد إنما يصطاد إذا دلت هيئته على حياته، فإذا كان شبيهاً بالجماد ترك كما تترك سائر الحجارة.

تأمل « العقاب » عندما يصطاد السلحفاة، يحدها كأنها حجر، ولا يجد فيها موضعاً لأكله، فيصعد بها في مخالبه، حتى إذا ابتعد من الأرض اعتدل بها على جبل أو حجارة وأرسلها، فتشمها الوقعة فيسقط عليها فيأكلها. فانظر كيف ألهم الطريق في نيل قوته من غير عقل ولا روية.

ما يصطاده من ذباب أو غيره أخرج لسانه ، فيخطف ذلك بسرعة فوق البرق ، ثم يعود على حالته كأنه جزء من الشجرة ، وجعل الله لسانه بخلاف المعتاد ، ليلحق به ما بعد عنه بثلاثة أشبار أو نحوه ، فقد سخر له ما يصطاد به على هذه المسافة ، وإذا رأى ما يريعه ويخيفه تشكّل على هيئة وشكل ينفر منه من يصطاد الحيوان ويكرهه . فانظر هذه الأشياء التي خلقت فيه لأجل قلة نهضته فأعين بها .

انظر إلى الحيوان الذي يسمى « سبع الذباب » وما أعطى من الحيلة والرفق فيما يقتات به ، فإنك تجده يحس بالذباب قد وقع قريباً منه فيركد ملياً حتى كأنه ميت أو جماد لا حراك به ، فإذا أحس أن الذباب قد اطمأن دب ديباً رقيقاً حتى لا ينفره ، حتى إذا صار قريباً منه بحيث يناله بوثة وثب عليه فأخذه ، فإذا أخذه اشتمل عليه يحسده كله خشية أن يتخلص منه الذباب ، فلا يزال قابضاً عليه حتى يحس ببطلان حركته فيقبل عليه فيفتدي فيه بما يلائمه ، فانظر إلى هذه الحيلة من فعله ، وهي مخلوقة من أجل رزقه ، فسبحان الباري الحكيم .

انظر إلى « النرّ والبعوض » الذي أوهن الله قوّتها ، وأصغر قدرها ، وضرب بها المثل في كتابه ، هل تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها من جناح تطير به ، ورجل تعتمد عليها ، وبصر تقصد به موضعاً تنال فيه قوتها ، وآلة لهضم غذاؤها وإخراج فضلتها . وانظر هل يمكن أن تعيش من غير قوت ؟ وهل يمكن أن يكون القوت في غير محل واحد ؟ وإخراج فضلتها من غير منفذ ؟ ثم انظر كيف دبرها العزيز الحكيم فسواها ، وقدر أعضائها ، واستودعها العلم والمعرفة بنافعها ومضارها ،

انظر إلى « الغراب » لما كان مكروهاً ، خلق في طبعه الحذر لصيانة نفسه ، حتى كأنه يعلم الغيب ممن يقصده ، وألهم الاحتيال في إخفاء عشه لصون فراخه ، وقل احتفاله بالأنثى خشية أن تشغله عن شدة حذره ، ولذلك قل أن يرى مجتمعاً مع أنثى ، فهذا أبداً دأبه وحاله مع من له عقل وفطنة ، وتراه مع البهائم على خلاف ذلك ، فيقف على ظهورها ، ويأكل من دم البعير ، ومن أرواث الدواب وقت تبرزها ، وإذا وجد شيئاً من قوته وأكل منه وشبع دفن باقيه حتى يعاوده وقتاً آخر ؛ فما خلّق هذا في طبعه ، ودبره بهذا التدبير المعجيب إلا الله ، لأنه [أي الغراب] لا عقل له ولا رويّة .

انظر إلى « الحداة » لما كانت مكروهة حفظت نفسها بقوة طيراتها وتعاليلها ، وحفظت في أمر قوتها بقوة بصرها ، فإنها ترى ما تقتات به في الأرض مع علوها في الجو فتخطّ نحوه بسرعة ، والهمت معرفة من هو مقبل ومن هو مدبر ، فتخطف ما تخطفه من الناس من وراءهم ، ولا تخطف مما يستقبلها لتلائمها المستقبل بيديه ، واعينت - لما كان غذاؤها من هذه الوجوه - بأن جعلت لها مخالب كأنها السنانير ، فلا يكاد يسقط منها ما ترفعه ، فسبحان المدبر الحكيم .

انظر إلى الحيوان المسمى « حرباء » وما فيه من التدبير ، فإنه خلق بطيئاً في نهضته ، وكان لا بد له من قوته ، فخلق على صورة عجبية ، فخلقت عيناه تدور لكل جهة من الجهات حتى يدرك صيده من غير حركة في جسده ولا قصد إليه ، ويبقى جامداً كأنه ليس من الحيوان ، ثم أعطي مع السكون ، وهو أنه يتشكل مع لون الشجرة التي يكون عليها ، حتى يكاد يختلط لونه بلونها ، ثم إذا قرب منه

في حكمة خلق السمك وما تضمن خلقها من الحكم

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ (١)

انظر واعتبر بما خلق الله تعالى في البحار والأنهار من الحيوانات المختلفة الصور والأشكال ، وما فيه من الآيات البينات ، فإنه تعالى لما جعل مسكنه في الماء لم يخلق له قوائم ، ولم يخلق فيه رئة ، لأنه لا يتمشى وهو منغمس في لجة الماء ، وخلق له مكان القوائم اجنحة شداد ، يحركها من جانبه فيسير بها حيث شاء ، وكسا جلده كسوة متداخلة صلبة تخالف لحمه ، متراصة كأنها درع ، لتقيه ما يعتمدي عليه وما يؤذيه ؛ وما لم يخلق له من السمك تلك الكسوة - وهي القشور المتداخل الخلق على ظاهره - خلق له جلداً غليظاً متقناً يقوم له مقام تلك الكسوة لغيره ، وخلق له بصراً وسمعاً وشمّاً ، ليستعين بذلك على نيل قوته والهرب مما يؤذيه ، ثم انظر كيف أعطي في قعر البحر ما يناسبه في نيل القوت والهرب مما يضره .

١ - الآية ١٤ / من سورة النحل .

وكله دليل على علمه وقدرته وحكمته البالغة ، فهي بعوضة صغرت في النظر ، ومع هذا فلو أن أهل السموات والأرض ومن الملائكة ، فمن دونهم من العالمين وسائر الخلق أجمعين ، أرادوا أن يعرفوا كيف قسم الخالق سبحانه أجزائها ، وحسن اعتدال صورتها في أعضائها ، لما قدروا على ذلك إلا تظاهراً لمنظر العجز منهم على عدم علم حقيقة الخبر ، ولو اجتمعوا ثم تفكروا كيف ركبت معرفتها حتى عرفت أن ما بين الجلد واللحم دماً ، وهو الذي فيه غذاؤها ، ولولا معرفتها به لم قدم على مصه حتى تطعمه ، وكيف همتها التي قصدت بها أن تطير إلى الموضع الذي ألهمها ربها أن فيه غذاءها ، وكيف خرق سمعها ، وكيف سمعت حساً من يقصدها ، فلن يدرك ذلك منها الخلاق أجمعون . ولو جزؤوها ما ازدادوا في أمرها إلا عمى وبعداً عن المعرفة ، فهذه الحكمة والقدرة في بعوضة ، فما ظنك بجميع مخلوقاته ؟ سبحانه وتعالى علواً كبيراً (١) .

١ - وقد ضرب الله مثلاً في القرآن فقال :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له * ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له * وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه * ضعف الطالب والمطلوب * ماقدروا الله حق قدره * ان الله لقوي عزيز » .
الآيتان ٧٣ ، ٧٤ / من سورة الحج .

ولما علم الله سبحانه أن بعضه غذاء لبعض كثرته، وجعل أكثر أصنافه يحمل، ولم يجعل الحمل منه مخصوصاً بالأنثى دون الذكر كحيوان البرية، بل جعل الذكر والأنثى جنساً واحداً، يخلق في بطونها مرة واحدة في وقت معلوم، ذرية مجتمعة مشتملة على عدد لا ينحصر، فيخلق من جوف واحدة عدداً لا يحصى، وذلك من كل بكرة حوتاً من الجنس، ومن جنس آخر يخلق في الأنهار وغيرها بغير توالد، فيخلق منها أعداداً لا تحصى دفعة واحدة، ومنه صنف يتوالد بالذكر والأنثى، وهذا الجنس يخلق له يدان ورجلان مثل السلحفاة والتمساح، وما شاكلها فيتولد منها بيض، فإذا فقس البيض بحرارة الشمس خرج من كل بيضة واحد من الجنس.

ولما علم سبحانه وتعالى أن السمك في البحر لا يمكن أن يحضن ما يخرج من بزره، ألقى الروح في البذر جميعه عندما يولد، فيجد فيه جميع ما يحتاجه من الأعضاء عند إلقاء الروح فيه، فيستقل ولا يفتقر إلى أحد في كمال خلقه؛ فانظر هذه الحكمة والطف، حيث لم يمكن حضانتها في البحر، ولا تربيتها ولا معونته البتة، جعله مستقلاً بنفسه، مستغنياً عن ذلك كله، ثم إن الله سبحانه كثره لأن منه قوت جنسه، وقوتاً لبني آدم والطير، فلذلك كان كثيراً.

ثم انظر إلى سرعة حركته، وإن لم تكن له آلة كغيره من الحيوان. وانظر إلى حركة ذنبه وانقسامه، وكيف يعتدل بذلك في سيره كما تعتدل السفينة برجلها في سيرها، وخلق أرياشه الواحاً من جانبيه ليعتدل بها أيضاً في سيره فهو بمنزلة المركب.

وانظر إلى عظامه كيف خلقت مثل العمدة يبنى عليها، ففي كل

موضع منه ما يليق به من صورة العظم المشاكل لذلك العضو، فهو كإنشاء المركب، يمتد فيه العظم الجافي الذي هو قوته، ويخرج من الأضلاع إلى مراقي البطن والظهر وعظام الرأس مما يحتاج إليه من الأمر وبه قوامه.

وانظر إلى ما كان منه كاسراً كيف أعين على نيل قوته، لصلابة اللحم، وقوة النهضة، وكثرة الأسنان، حتى أنه لكثرة أسنانه تكون العضة الواحدة كافية وتجزيه عن المضغ.

انظر إلى ما خلق الله في البحر ضعيفاً قليل الحركة، مثل أصناف الصدف والحزون، كيف حفظه بأن خلق عليه ذلك الحصن الذي هو صلب كالرخام ليصونه ويحفظه، وجعل له بيتاً وسكناً، وجعل ما يوالي جسده ناعماً أنعم ما يكون، وربما ضيق بيت بعض أصناف الحزون، حتى لا يكون فيه مطمع البتة؛ وأصناف منه خلقت في محائر مفتوحة لا يمكن صيانتها لنفسها لتغلقها، ولا يضيق مسلكها، فجعل الله لها من الجبال والحجارة مغطاً، وجعل لها أسباباً تلتصق بها في الجبل، فلا يستطيع إخراجها إلا بغاية الجهد، وجعل لها قوتاً من رطوبة الجبل تأتي حياتها بها.

وأما الحزون الذي بيته كأنه كوكب فإنه يخرج رأسه ويرعى، فإذا أحس بما يؤذيه أدخل رأسه في بيته، وختم عليه بطابع صلب، يقرب من صلابة بيته فيغيب أثره بالجملة. فانظر هذا اللطف وأن الله لم يهمل شيئاً، واعلم أن الله حافظ لما في البحار وما في الآكام والجبال،

في حكمة خلق النبات وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ * وأنزل لكم من السماء ماءً فانبثتنا به حدائق ذات بهجة * ما كان لكم أن تنبتوا شجرها * ءإله مع الله * بل هم قومٌ يعدلون ^(١) ۞ .

انظر وفقك الله وسددك إلى ما على وجه الأرض من النبات ، وما في منظره من النعم ، في حسن منظره وبهجته ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر الأرض .

ثم انظر إلى ما جعل البارئ فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التي لا تحصى ، وخلق فيه من الحب والنوى لحفظ أنواع النبات ، وجعل الثمار للغذاء والتفكه ، والأتبان للعلف والرعي ، والخطب للوقود ، والأخشاب للعمارة وإنشاء السفن ، وغير ذلك من

١ - الآية ٦٠ / من سورة النحل .

فتبارك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ^(١) .

وانظر إلى أنواع من السمك يرعى قرب البر الصغير منها ، والكبير في الأعماق ، وخلق الله في جوفه صبغاً كأنه حبر ، وهو يُخلَق له فيه من فضلة غذائه كما يخلق اللبن في الضرع ، فإذا أحس بما يؤذيه أخرج من جوفه ما يعكر موضعه ، ثم يذهب في الماء الذي تغير ، فلا يُعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغير الماء ، فعل الله ذلك له وقاية لنفسه ، وجعل فيه مصالح أخرى لا يعلمها إلا خالقها .

انظر إلى نوع آخر من السمك أعين بأجنحة مثل أجنحة الخفاش ، ينتقل بها عند وقوع الأنواء من موضع إلى موضع في الهواء من وجه الماء ، ويظهر لمن لا يعرف ذلك أنه من طيور البر .

انظر إلى نوع آخر من أنواع السمك ضعيف ، وكثيراً ما يكون في الأنهار ، وجعل الله فيه خاصية تصونه إذا اقتربت منه يد من يأخذه ، وفيه الروح تحدر البدن واليد فيعجز قاصده عن أخذه بذلك السبب . فلو ملئت الكتب بعجائب حكم الله في خلق واحد لامتلات الكتب . وعجز البشر عن استكائها ، وما هو المذكور في كل نوع إلا تنبيه يشير إلى أمر عظيم .

١ - في هذه العبارة اقتباس من جواب موسى عليه السلام حين سأله فرعون : « قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » الآيتان ٤٩ - ٥٠ / من سورة طه .

الأعمال التي يطول تعددها . والورق والأزهار ، والأصول والعروق ، والفروع والصمغ ، لضروب من المصالح لا تحصى : أرأيت لو وجدت الثمار مجموعة من الأرض ، ولم تكن تنبت على هذه السوق الحاملة لها ؟ لكان يحصل من الخلل في عدم الأخشاب والحطب والأتبان وسائر المنافع ما لا يُعَدّ ، وإن وجد الغذاء بالثمرات والتفكه بها .

ثم انظر ما جعل الله فيها من البركات حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة ، وأكثر من ذلك وأقل ، والحكمة في زيادتها وبركتها حصول الاقتيات ، وما فضل ادخر للأمور المهمة والزراعات ، وذلك في المثال كملك أراد عمارة بلدة ، فأعطى أهلها من البذر ما يبذرونه ، وفضلة يتقوّنون بها إلى إدراك زرعهم ، فهذه هي الحكمة التي أعمّ الله بها البلاد وأصلح بها العباد . وكذلك الشجر والنخل يزكو وتتضاعف ثمراتها حتى يكون من الحبة الواحدة الشيء العظيم ، ليكون فيه ما يأكله العباد ، ويصرفونه في مآربهم ، ويفضل منه ما يدخروا يفرس فيدوم جنسه ويؤمن انقطاعه ، ولولا نموه وبقاء ما يخلفه لكان ما أصابته جائحة ينقطع فلا يوجد ما يخلفه .

تأمل هذه الحبوب ، فإنها تخرج في أوعية تشبه الخراط ، لتصونها وتحفظها إلى أن تشتد وتستحكم كما تخلق المشيمة على الجنين ، فأما البذر وما أشبهه من الحبوب فإنه يخرج من قشور صلبة ، على رؤوسها أمثال الأسنة ليمنع من الطير . فانظر كيف حصنت الحبوب بهذه الحصون ، وحجبت لئلا يتمكن الطير منها فيصيبها ، فهو وإن كان ينال منها قوته ، إلا أن حاجه الأدمي أشد وأولى .

تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات ، فإنها لما كانت محتاجة إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوانات - ولم يخلق فيها حركات تنبث بها ولا آلات توصل إليها غذاءها - جعلت أصولها مركوزة في الأرض ، لتجذب الماء من الأرض ، فتغذي بها أصولها وما علا منها من الأغصان والأوراق والثمار ، فصارت الأرض كالأم المربية لها ، وصارت أصولها وعروقها كالأفواه الملتقمة لها ، وكأنها ترضع لتبلغ منها الغذاء كما يرضع أصناف الحيوان من أمهاتها . ألم تر إلى عمد الخيم والفسطاط كيف يمتد بالأطناب من كل جانب ليثبت منصبتة فلا يسقط ولا يميل ، فهكذا أمر النبات كله ، له عروق منتشرة في الأرض ، ممتدة إلى كل جانب تمسكه وتقيمه ، ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية ، لا سيما في الرياح العاصفة ، فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة ، واقتدى الناس في أعمالهم بحكمة الله في مصنوعاته .

تأمل خلق الورق ، فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة ، فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ ، منسوجة نسيجاً دقيقاً عجيباً ، لو كان مما يصنع بأيدي البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة إلا في مدة طويلة ، وكان يحتاج فيه إلى آلات وطول علاج ، فانظر كيف يخرج منه في المدة القليلة ما يلا السهل والجبال وبقاع الأرض بغير آلة وحركة ، إلا قدرة الباري وإرادته وحكمته .

ثم انظر إلى العجم والنوى والعة فيه ، فإنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقامها إذا عدم ما يفرس أو عاقبة سبب ، فصار ذلك كالشيء النفيس الذي يخزن في مواضع شتى لعظم الحاجة إليه ، فإن حدث

لما في بعض المواضع منه حادث وجد منه في موضع آخر ؛ ثم في صلابته يمسك رخاوة الثمار ورقتها ، ولولاه لسرحت وسرح الفساد إليها قبل إدراكها ؛ وفي بعضها حب يؤكل وينتفع بدهنه ويستعمل في مصالح شتى .

ثم انظر إلى ما خلق الله تعالى فوق النواة من الرطب ، وفوق العجم من العنبه والهيئة التي تخرج عليها ، وما في ذلك من الطعم واللذة والاستمتاع للعباد ؛ ثم تأمل خلق الحب والنوى وما أودع فيه من قوة وعجائب ، كالمودع في الماء الذي يخلق منه الحيوان ، وهو سر لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه ، وما علم من ذلك يطول شرحه .

ثم انظر كيف حفظ الحب والنوى بصلابته ، وخلقت في ظاهره قشرة ، حتى أنه بسبب ذلك إن سقط في تراب أو غيره لا يفسده سريعاً ، وإذا ادخر لوقت الزراعة بقي محفوظاً ، فصار قشره الخارج حافظاً لما في باطنه بمنزلة شيء نفيس عمل له صندوق يحفظه ، وعندما يوضع في الأرض ويسقى يخرج منه عرق في النوى وغصن في الهواء ، وكلما ازداد غصناً ازداد عرقاً يتقوى به أصل الشجرة ، وينصرف الغذاء منه إلى الغصن ، فهي كذلك إذ يتم غصنها قوتها ، فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهواء ، والانكسار بالنقل أو بغيره ، ويصعد الماء في جذورها إلى أعالي الشجرة ، فيقسمه الله سبحانه بالقسط وميزان الحق ، فينصرف للورق غذاء صالح له وللعروق المشبكة في الأوراق ، وإلى جوانب الورق ما يليق بغذائها ، وللثمار غذاء صالح لها ، وللأقماع والأزهار غذاء صالح ،

ولكل من ذلك ما يليق به ويصلحه ، فهو كذلك حتى يكمل في الثمار نموها وطعمها ، ورائحتها وألوانها المختلفة ، وحلاوتها وطيبها .

ثم انظر كيف جعل الله سبحانه خروج الأوراق سابقاً لخروج الثمار ، لأن الثمرة ضعيفة عند خروجها ، تتضرر بحرّ الشمس وبرد الهواء ، فكانت الأوراق ساترة لها ، وصار ما بينها من الفرج لدخول أجزاء من الشمس والهواء لا غنى عنها ، فيحفظها من المن والعفن ، وغير ذلك من الفساد .

ثم انظر كيف رتب الباري سبحانه الأشجار والثمار والأزهار ، وجعلها مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، فأشكالها ما بين طويل وقصير ، وجليل وحقير ، وألوانها ما بين أحمر وأبيض ، وأصفر وأخضر ، ثم كل لون منها مختلف إلى شديد وصاف ومتوسط . وطعومها ما بين حلو حامض ، ومزّ ومُرّ . وروائحها متنوّعة إلى عطرات لذیذات مختلفات . وقد أوضح الكتاب العزيز من ذلك ما ذكرناه بما يشرح الصدور ، ويكشف للتأمل منه كل مستور .

فانظر ما أودع الباري سبحانه فيها من السر عند النظر إليها ، فإنها تجلي عن القلوب درنها عند مشاهدتها ، وتشرح الصدور برؤيتها ، وتنتعش النفوس لرؤيتها . وأودع الله فيها منافع لا تحصى مختلفة التأثير ، فمنها ما تقوى به القلوب ، ومنها أغذية تحفظ الحياة ، وجعلها مطعومة لذیذة عند تناولها ، وخلق فيها بذوراً لحفظ نوعها ، تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها .

انظر وتأمل في قوله عز وجل : ﴿ وشجرة تخرج من طورٍ

سِينَاءَ تَنْبِتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلذَّكَلِينَ^(١) ﴿ فَأَخْرَجَ سَبْجَانَهُ فِيمَا بَيْنَ
الْحَجَرِ وَالْمَاءِ زَيْتًا صَافِيًا لَذِيذًا نَافِعًا ، كَمَا أَخْرَجَ اللَّبَنَ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ،
وَأَخْرَجَ مِنَ النَّحْلِ شَرَابًا عَسَلًا مُخْتَلَفًا الْوَانَهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، وَلَوْ
جُمِعَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ فِي مُسْتَقَرٍّ لَكَانَتْ مِثْلَ الْأَنْهَارِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ لِمَنَافِعِ
الْعِبَادِ . فَانْظُرْ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْعِبَرَةِ لَذَوِي الْأَفْكَارِ . ثُمَّ انْظُرْ إِلَى الْمَاءِ
الصَّاعِدِ مِنَ الْعُرُوقِ الرَّاسِخَةِ الْحَافِظَةِ لِلْأَعْلَى مِنَ الشَّجَرَةِ ، وَكَيْفَ قَسَمَ
الْبَارِي فِي غِذَاءِ النَّخْلَةِ ، فَقَسَمَ لِلْجَذُورِ مَا يَصْلُحُ لَهَا ، وَلِلْجَرِيدِ وَمَا فِيهِ
مِنَ السَّلِّ مَا يَصْلُحُ لَهَا وَيُنَاسِبُ جَرِيدَهَا ، وَيُرْسِلُ لِلثَّمَرَةِ مَا يَلِيقُ بِهَا ،
وَكَذَلِكَ اللَّيْفُ الْحَافِظُ لِلْأَصُولِ مَعَ الثَّمَرَةِ . وَجَعَلَ الثَّمَرَةَ - لِمَا كَانَتْ
ضَعِيفَةً فِي أَوَّلِ أَمْرِهَا - مُتَرَاصَةً مُتَرَكَمَةً بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، بِمَجْمُوعَةٍ فِي
غُلَافٍ مُتَقَنٍّ يَحْفَظُهَا بِمَا يَفْسُدُهَا وَيَغْيِرُهَا ، حَتَّى إِذَا قَوِيَتْ صَلَحَتْ أَنْ تَبْرُزَ
لِلشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ ، فَانْشَقَّ عَنْهَا غُلَافُهَا عَلَى التَّدْرِيجِ ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ
حَافِظًا لَهَا ، فَيَصِيرُ يَفْتَرِقُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ عَلَى قَدَرِ مَا تَحْتَمِلُهُ الثَّمَرَةُ مِنْ
الْهَوَاءِ وَالشَّمْسِ حَتَّى تَكْتَمِلَ قُوَّتُهَا ، فَتَنْظُرُ جَمِيعُهَا حَتَّى لَا يُضُرَّ بِهَا
مَا يَلْقَاهَا مِنْ حَرٍّ وَبَرْدٍ ، ثُمَّ تَرَاهَا فِي النُّضْجِ وَالطَّيْبِ إِلَى بُلُوغِ الْغَايَةِ
الْمَقْصُودَةِ مِنْهَا ، فَيَلْتَذُّ حَيْثُ بَأْكُلُهَا ، وَيُمْكِنُ الِاتِّفَاعُ بِإِدْخَارِهَا ،
وَتَصْرَفُ فِي الْمَآرَبِ الَّتِي هَيِّئَتْ لَهَا ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَشْجَارِ ،
فَإِنَّكَ تَرَى فِيهَا مِنْ أَسْبَابِ الْحِفْظِ وَلَطَائِفِ الصَّنْعِ مَا يَعْتَبَرُ بِهِ كُلُّ ذِي
فَهْمٍ وَلُبٍّ . فَمِنْ ذَلِكَ : خَلَقَ الرَّمَانَةَ وَمَا فِيهَا مِنْ غَرَائِبِ التَّدْبِيرِ ، فَإِنَّكَ
تَرَى فِيهَا شَحْمًا مَرْكُومًا فِي نَوَاحِيهَا ، غَلِيظَ الْأَسْفَلِ ، رَقِيقَ الْأَعْلَى ،
كَأَمْثَالِ التَّلَالِ فِي تَلْوِينِهِ ، أَوْ الْبِنَاءِ الَّذِي وَسِعَ أَسْفَلُهُ لَلِاسْتِقْرَارِ ،

١ - الآية ٢٠ / من سورة المؤمنون .

وَرَفَقَ أَعْلَاهُ حَتَّى صَارَ مَرْصُوفًا رَصْفًا كَأَنَّهُ مَنْضُدٌّ بِالْأَيْدِي ، بَلْ تَعَجَزُ
الْأَيْدِي عَنْ ذَلِكَ التَّدَاخُلِ الَّذِي نَظَّمَهَا فِي الشَّحْمِ الْمَذْكُورِ ، وَتَرَاهُ
مَقْسُومًا أَقْسَامًا ، وَكُلُّ قِسْمٍ مِنْهُ مَقْسُومٌ بِلَفَائِفٍ رَقِيقَةٍ مَنْسُوجَةٍ
أَعْجَبَ نَسْجٍ وَالطَّفَةِ ، لِتَحْجُبَ حَبَّهَا حَتَّى لَا يَلْتَقِيَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ
فَيَفْسُدَ وَلَا يَلْحَقَ الْبُلُوغُ وَالنَّهْيَةُ ، وَعَلَيْهَا قَشْرٌ غَلِيظٌ يَجْمَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ .

وَمِنْ حِكْمَةِ هَذِهِ الصِّفَةِ : أَنَّ حَبَّهَا لَوْ كَانَ حَشْوَهَا مِنْهُ صَرَفًا بَغِيرِ
حَوَاجِزٍ لَمْ يَمُدَّ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْغِذَاءِ ، فَجَعَلَ ذَلِكَ الشَّحْمَ خِلَالَهُ لِيَمُدَّهُ
بِالْغِذَاءِ . أَلَا تَرَى أَصُولَ الْحَبِّ كَيْفَ هِيَ مَرْكُوزَةٌ فِي ذَلِكَ الشَّحْمِ ؟
مَمْدُودَةٌ مِنْهُ بِعُرُوقٍ رَقَاقٍ تَوْصِلُ إِلَى الْحَبِّ غِذَاءَهَا ، وَمِنْ رَقِّهَا وَضَعْفِهَا
لَا تَكْدُرُ عَلَى الْأَكْلِ وَلَا تَعْرِفُ بِهَا .

ثُمَّ انْظُرْ مَا يَصِيرُ مِنَ الْحَلَاوَةِ فِي الْحَبِّ مِنْ أَصُولٍ مُرَّةٍ شَدِيدَةٍ
الْمَرَارَةِ قَابِضَةٍ ، ثُمَّ تَلْكَ اللَّفَائِفُ عَلَى الْحَبِّ تَمْسُكُهُ عَنِ الْاضْطِرَابِ
وَتَحْفَظُهُ ؛ ثُمَّ كَحِفْظِ الْجَمِيعِ وَغِشَاءِ بِقَشْرِ صَلْبٍ ، شَدِيدِ الْقَبْضِ وَالْمَرَارَةِ ،
وَقَايَةٍ لَهُ مِنَ الْآفَاتِ ، فَإِنَّ هَذَا النُّوعَ مِنَ النَّبَاتِ لِلْعِبَادِ بِهِ انْتِفَاعَاتٌ ،
وَهُوَ مَا بَيْنَ غِذَاءٍ وَدَوَاءٍ ، وَتَدْعُو الْحَاجَةُ إِلَيْهِ فِي غَيْرِ زَمَانِهِ الَّذِي يُجْنَى
فِيهِ مِنْ شَجَرِهِ ، فَحَفِظَ عَلَى هَذِهِ الصَّنْعَةِ لِذَلِكَ .

انْظُرْ إِلَى عُودِ الرَّمَانَةِ الَّتِي هِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ ، كَيْفَ خَلَقَ مَثْبِتًا مُتَقَنًّا
حَتَّى تَسْتَكْمَلَ خَلْقَهَا ، فَلَا تَسْقُطُ قَبْلَ بُلُوغِهَا الْغَايَةَ وَيُحْتَاجُ إِلَيْهَا ، وَهِيَ
الثَّمَرَةُ الْمُخْتَصَّةُ بِالْإِنْسَانِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ .

انْظُرْ إِلَى النَّبَاتِ الْمَمْتَدِّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِثْلَ الْبَطِيخِ وَالْيَقِطَيْنِ وَمَا
أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَمَا فِيهِ مِنَ التَّدْبِيرِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ عُودُ هَذَا النَّبَاتِ رَقِيقًا

فيما تستشعر به القلوب من العظمة لعادم الغيوب

قال الله العظيم : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ ^{السبع} وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ *
وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ * وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ *
إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝ ١١ ۝ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ
يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ * وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبُحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ * أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ۝ ٢ ۝ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ ^{بِحَمْدِهِ} وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ
خِيفَتِهِ ۝ ٣ ۝ ﴾ .

إعلم وفقنا الله وإياك أن جميع ما تقدم ذكره في هذا الكتاب من
بدائع الخلق وعجائب الصنع ، وما ظهر في مخلوقاته من الحكم آيات

١ - الآية ٤٤ / من سورة الامراء .

٢ - الآية ٥ / من سورة الشورى .

٣ - الآية ١٣ / من سورة الرعد .

رياناً إذا احتياج إلى الماء ولا ينبت إلا به ، جعل ما ينبت به منبسطاً على
وجه الأرض ، فلو كان منتصباً قائماً كغيره من الشجر لما استطاع حمل
هذه الثمار مع طراوة عودها ولينها ، فكانت تسقط قبل بلوغها وبلوغ
غاياتها ، فهي تمتد على وجه الأرض لبلوغ النفاية ، وتحمل الأرض
عودها وأصل الشجرة ، والسقي يدها .

وانظر هذه الأصناف كيف لا تخلق إلا في الزمن الصالح لها ولمن
تناولها ، فهي له معونة عند الحاجة إليها ، ولو أتت في زمان البرد
لنفرت النفوس عنها ، ولأضرّت بأكثر من يأكلها .

ثم انظر إلى النخل لما كانت الأنثى منه تحتاج إلى التلقيح ، خلق
فيها الذكر الذي تحتاج إليه لذلك ، حتى صار الذكر في النخل كأنه
الذكر في الحيوان ، وذلك ليتم خلق ما بزراعته تحفظ أصول هذا النوع .

ثم انظر ما في النبات من العقاقير النافعة البديعة ، فواحد يغور
في البدن فيستخرج الفضلات الغليظة ، وآخر لاخراج المرة السوداء ،
وآخر للبلغم ، وآخر للصفراء ، وآخر لتصريف الريح ، وآخر لشد
البطن في الطبيعة ، وآخر للإسهال ، وآخر للقيء ، وآخر لرواحه ،
وآخر للمرضى والضعفاء ، وكل ذلك من الماء ، فسبحان من دبّر ملكه
بأحسن التدبير .

بينات ، وبراهين واضحة ، ودلائل دالات على جلال بارئها وقدرته ، ونفوذ مشيئته وظهور عظمته ، فإنك إذا نظرت إلى ما هو أدنى إليك وهي نفسك ، رأيت فيها من العجائب والآيات ما سبق التنبيه عليه وأعظم منه ، وكذلك إذا نظرت إلى مستقرك وهو الأرض ، وأجلت فكرك فيها ، وأطلت النظر في استرسال ذهنك فيما جعل فيها وعليها من جبال شاهقات ، وما أحيط بها من بحار زاخرات ، وما جرى فيها من الأنهار ، وما انبت فيها من أصناف النباتات والأشجار ، وما بُثَّ فيها من الدواب ، إلى غير ذلك مما يعتبر به أولو الألباب .

ثم إذا نظرت إلى سمعتها ، وبعد أكتافها ، وعلمت عجز الخلائق عن الإحاطة بجميع جهاتها وأطرافها ؛ ثم إذا نظرت فيما ذكرته العلماء من نسبة هذا الخلق العظيم إلى السماء ، وأن الأرض وما فيها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة في أرض فلاة ، وما ذكره النظار من أن الشمس في قدرها تزيد على قدر الأرض مائة ونيفاً وستين جزءاً ، وأن من الكواكب ما يزيد عن الأرض مائة مرة . ثم إنك ترى هذه النيرات كلها من شمس وقمر ونجوم قد حوت السموات ، وهي مركوزة فيها ، ففكر في السماء الحاوية لهذا القدر العظيم كيف يكون قدرها ؟

ثم انظر كيف ترى الشمس والقمر والنجوم والسماء الجامعة لذلك في حدة عينك مع صغرهما ، وبهذا تعرف بُعد هذا كله منك ، وعظم حركتها وأنت لا تحس بها ولا تدركها لبعدها ؛ ثم إنك لا تشك أن الفلك يسير في لحظة قدر كوكب ، فيكون سيره في لحظة قدر الأرض مائة مرة أو أكثر من ذلك ، وأنت غافل عن ذلك .

ثم فكّر في عظم قدر هذه الأشياء ، واسمع قسم الرب سبحانه بها في مواضع من الكتاب العزيز ، فقال عز وجل : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾^(١) . وقال : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ * وما أدراك ما الطارق ؟ النجم الثاقب^(٢) . وقال : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم^(٣) إلى غير ذلك من الآي .

ثم ترقّ بنظرك إلى ما حواه العالم العلوي من الملائكة وما فيها من الخلق العظيم ، وما أخبر به جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن إسرائيل عليه السلام ، يقول جبريل : « فكيف لو رأيت إسرائيل ؟ وإن العرش لعلى كاهله ، وإن رجله لفي تخوم الأرض السفلى » وأعظم من هذا كله قوله عز وجل : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾^(٤) . فما ظنك بخلق وسع هذا الأمر العظيم ؟ فارفع نظرك إلى باريء هذا العظيم ، واستدل بهذا الخلق العظيم على قدر هذا الخالق العظيم ، وعلى جلاله وقدرته وعلمه ، ونفوذ مشيئته ، واتقان حكمته في برّيته .

وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوك بغير عمد تُقَلِّه ، ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبتته ، فمن نظر في ملكوت السماوات والأرض ، ونظر في ذلك بعقله ولبه ، استفاد بذلك المعرفة بربه ، والتعظيم لأمره ، وليس للمتفكرين إلى غير ذلك سبيل ، وكلما ردّد العقل الموفق النظر والتفكير في عجائب الصنع وبدائع الخلق ازداد معرفة

١ - الآية ١ / من سورة البروج .

٢ - الآيات ١-٣ / من سورة الطارق .

٣ - الآية ٧٥ / من سورة الواقعة .

٤ - الآية ٢٥٥ / من سورة البقرة .

ويقيناً ، واذعاناً لبارئته وتعظيمها . ثم الخلق في ذلك متفاوتون ، فكل
مثال من ذلك على حسب ما وهبه له من نور العقل ونور الهداية ،
واعظم شيء موصل إلى هذه الفوائد المشار إليها تلاوة الكتاب
العزیز ، وتفهم ما ورد فيه وتدبر آياته ، مع ملازمة تقوى الله
سبحانه . فهذا هو باب المعرفة بالله ، واليقين بما عند الله .

ثم انظر وتأمل ما نُشير إليه ، فإنك علمت على الجملة أن رسول
الله ﷺ أسرى به إلى أن بلغ سدره المنتهى ، ورآى من آيات ربه
الكبرى ، واطلع على ملكوت ربه ، وتحقق أمر الآخرة والأولى ،
ثم دنا حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فما ظنك بعلم من
شرف بهذا المعنى ، ثم أمر بأن يقول : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا 》^(١)
علمك الله بمعرفته ، ومنّ عليك بنور هدايته ، واستعملنا وإيتاك
بطاعته ، وجعلنا بكرمه أجمعين من أهل ولايته ، بِنْتِهِ وَكَرَمِهِ
وجوده ، إنّه ولي ذلك .

والحمد لله رب العالمين

مراجع تحقيق الكتاب

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : وضع محمد فؤاد عبدالباقي
طبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٤ هـ .
- ٣ - الكون بين العلم والدين : للدكتور جمال الدين الفندي ،
طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .
- ٤ - وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان : لأبي العباس شمس الدين
أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، تحقيق الدكتور احسان
عباس ، طبعة دار الصياد - بيروت .
- ٥ - طبقات الشافعية : تأليف جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن
الأسنوي ، تحقيق عبد الله الجبوري ، طبعة ديوان الأوقاف
بالعراق ، ١٣٩١ هـ .
- ٦ - الأعلام : تأليف خير الدين الزركلي ، المطبعة العربية بمصر
١٣٤٧ هـ = ١٩٢٨ م .
- ٧ - المصباح المنير : معجم لغوي تأليف العلامة أحمد بن علي المقرئ
الفيومي ، المتوفى سنة ٧٧٠ هـ . المطبعة العثمانية بالأزبكية بالقاهرة
١٣١٢ هـ .
- ٨ - البستان : معجم لغوي ، تأليف عبد الله البستاني ، المطبعة
الأمريكانية في بيروت - ١٩٢٧ م .
- ٩ - تحقيق النصوص ونشرها : تأليف عبد السلام هارون ، مؤسسة
الحلي للنشر والتوزيع بالقاهرة ؛ الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ =
١٩٦٥ م .

موضوعات الكتاب

الموضوع	صفحة
مقدمة المحقق :	٥
حياة المؤلف :	٧
مقدمة المؤلف :	١٣
الباب الأول :	١٥
التفكر في خلق السماء وفي هذا العالم	
الباب الثاني :	١٨
حكمة خلق الشمس	
الباب الثالث :	٢٣
حكمة خلق القمر والكواكب	
الباب الرابع :	٢٧
حكمة خلق الأرض	
الباب الخامس :	٣٣
حكمة خلق البحر	
الباب السادس :	٣٦
حكمة خلق الماء	
الباب السابع :	٣٨
حكمة خلق الهواء	
الباب الثامن :	٤٢
حكمة خلق النار	
الباب التاسع :	٤٥
حكمة خلق الانسان	
خاتمة لهذا الباب :	٦٦
في تكريم الانسان	
الباب العاشر :	٧١
حكمة خلق الطير	
الباب الحادي عشر :	٧٩
حكمة خلق البهائم	
الباب الثاني عشر :	
حكمة خلق النحل ، والنمل ، والعنكبوت ، ودود القز ، والذباب ، وغير ذلك	٨٩
الباب الثالث عشر :	
حكمة خلق السمك وما تضمن خلقها من الحكيم	٩٧
الباب الرابع عشر :	
حكمة خلق النبات وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى .	١٠١
الباب الخامس عشر :	
فيما تستشعر به القلوب من العظمة لعلام الغيوب	١٠٩
مراجع تحقيق الكتاب :	١١٣

عنوان المحقق

بيروت - جنوبي دار الفتوى
شارع - عبد الباسط فاخوري
هاتف ٣٠٦٤٣٥ - ٣١٥٨١٣